الفصل الثامن

أدب البحر فى الغرب

١ – رحلات ماركوبولو :

ماركوبولو هو أنموذج فذ للرحالة فى تاريخ الرحلات وأدبها ، فقد أمضى نحو ثلاثين عاماً من عمره فى رحلات بحرية وبرية منذ بلغ سن التاسعة عشرة حتى عاد إلى البندقية فى عام ١٢٩٥م . وخلال تلك الأعوام الثلاثين ركب ماركوبولو فوق أمواج البحر منطلقاً من مدينته البندقية إلى شواطئ آسيا القريبة والبعيدة من عكا إلى فارس ومن الهند إلى الصين . وتغلغل فى داخل آسيا ، وسجل كل ذلك فى كتابه الرائد فى أدب الرحلات الغربى « رحلات ماركوبولو » ، لذا وصف ماركوبولو « بأنه خلق آسيا خلقاً للعقل الأوربى » كما قال « جون ميسفيلد » فى تقديمه لرحلات ماركوبولو . وقال بأن « كتابه من أعظم الرحلات .. فإنه حتى فى هذه الأيام ، وقد انقضت عليه أكثر من ستة قرون ، ولايزال المرجع الرئيسى الثقة فيما يتعلق بأجزاء من آسيا الوسطى والإمبراطورية الصينية المترامية الأطراف » . وإنه « سيظل كتاب ماركوبولو بالغ الروعة عظيم القيمة لدى كل من الجغرافى والمؤرخ والباحث فى الحياة الآسيوية على السواء – فأما عند القارئ العام فإن السحر الأكبر للكتاب يكمن فى طابعه الرومانسى »[1] . فهو كتاب يجمع بين العلم والأدب . وقد حمل ماركوبولو إلى أوربا لدى عودته من رحلاته الطويلة أسرار صناعتين آسيويتين هامتين حضاريًّا هما صناعة الورق وصناعة البارود .

ولد ماركوبولو سنة ١٢٥٤ فى مدينة بحرية هى مدينة البندقية الشهيرة القائمة بين المياه المتدفقة عبر شوارعها والتى يشكل البحر أهم معالمها . وجاء ماركوبولو من أسرة بحارة ورحالة أيضاً ، كان أبوه وعمه يتاجران مع القسطنطينية عبر السفن ، واشتركا فى مغامرة بحرية وصلا فيها إلى البحر الأسود وشبه جزيرة القرم ، غير أنهما لم يتمكنا من العودة لنشوب إحدى حروب

(١) رحلات ماركوبولو ، مقدمة جون ميسفيلد ، ص ٧ .

التتار فى طريقها . فواصلا رحلتهما إلى بخارى حيث أمضيا بها ثلاث سنوات ، بعد عامين من الرحيل على الأقدام . ثم التحقا بفريق من مبعوثى الخان الأعظم قبلاى إمبراطور التتار الذى رحب بهما عند التقائه بهما وحملهما رسالة إلى البابا يطلب مبشرًا بالدين المسيحى وزيتًا مقدسًا . لكنهما فوجئا بوفاة البابا فعادا إلى البندقية ليجدا زوجة نيقولا بولو ، أم ماركوبولو قد توفيت . فمكثا نحو عامين بالبندقية ، ثم قررا معاودة الرحلة لإبلاغ الخان الأعظم بوفاة البابا وعدم تحقيق هدف الرحلة .

وهكذا صحبا معهما ماركوبولو ، الذى كان قد بلغ سن التاسعة عشرة ، فى رحلتهما العظيمة قاصدين عكا للحصول على الزيت المقدس ، فعلما بانتخاب « بابا » جديد فقابلاه ، وأبلغاه برسالة الخان ، وبعث معهم البابا براهبين لم يلبثا أن تخلفا عن صحبة ماركو وأبيه وعمه عند هبوب رياح الحرب . ومن ثم واصلوا رحلتهم لمدة ثلاث سنوات ونصف سنة ، حتى التقوا بالخان الأعظم الذى أحاطهم بالرعاية والتكريم وخص بها الشاب ماركو ، الذى تعلم لغة التتار وتمرس بشتى الأعمال والوظائف القيادية التى كلفه بها الخان . وهكذا أمضى ماركو نحو سبعة عشر عامًا من التجوال فى آسيا وصل خلالها إلى ولايات الهند الجنوبية . حتى قرروا العودة إلى وطنهم العائم فى البندقية . وقد ساعدتهم الظروف على نيل اللوحة الذهبية من الخان الأعظم التى تكفل حرية المرور والرعاية والأمن والتزود بالمؤن ولوازم السفر فى ذلك الزمن ، بأن كلفهم باصطحاب فتاة من أسرته عروس لحاكم فارس . ونظرًا لخبرتهم البحرية ولنشوب الحروب بين التتار فى البر ، فقد تم تجهيز السفن التى حملتهم فى رحلة بحرية طويلة استغرقت نحو سنتين إلى فارس . ومن فارس واصلوا رحلتهم البحرية إلى البندقية ، فوصلوها بعد غياب طويل حتى لقد أنكرهم أهلهم فى البندقية بسبب ثيابهم التترية ولغتهم الغريبة . غير أنه نظرًا لقيام الحرب بين البندقية وجنوة فقد أعد ماركو سفينته للقتال ضمن أسطول البندقية . ولكن ذلك الأسطول لم يلبث أن منى بالهزيمة وأسر ماركوبولو مع أسرى أسطول البندقية ، وقضى فى سجن جنوة ثلاث سنوات عكف خلالها على إملاء كتابه باللغة الفرنسية على سجين من زملائه يدعى « ستيجيلوا » . ثم أفرج عنه وعاد إلى البندقية فى عام ١٢٩٩ ، ليتزوج ويمضى حياة هادئة مغمورة حتى توفى سنة ١٣٢٤ .

أما كتابه « رحلات ماركوبولو » فله قصة طريفة ، فبعد أن أملاه ماركوبولو على زميله السجين ، نسخ الكتاب فى عشرات النسخ بلغات أوربية مختلفة بين إيطالية وفرنسية ولاتينية

مختلفة فى تحريرها وصياغتها ، ونظراً لجدة المعلومات وغرابة مراحل الرحلات فقد قوبل الكتاب بالتكذيب وعدم التصديق والاتهام بالاختلاق والمبالغة . ولم يلق كتاب ماركوبولو تقديره الحقيق إلا بعد وفاته بنصف قرن تقريبًا عندما عدلت خريطة آسيا طبقًا للمعلومات الواردة فى كتاب . أما أول طبعة من الكتاب فقد طبعت فى إيطاليا ، بعد وفاته بأكثر من قرنين فى سنة ١٥٥٩ وتعتبر هذه الطبعة الإيطالية أدق الطبعات ، وعنها ترجم وليم مرسون الطبعة الإنجليزية سنة ١٨١٨ ، وجاء بعده « توماس رانت » ليعيد إصدارها مزودة بالهوامش والإيضاحات والإضافات التى أضافها بالمقارنة مع الطبعات الأخرى ، وهذه ترجمها بدوره عبد العزيز توفيق جاويد إلى اللغة العربية ، وإليها ترجع المقتطفات الواردة هنا .

قسم ماركوبولو كتابه الضخم « رحلات ماركوبولو » إلى ثلاثة كتب أو ثلاثة أقسام . استهلها بوصف دقيق لرحلة والده « نيقولا بولو » وعمه « مافيوبولو » إلى القسطنطينية وشبه جزيرة القرم ، واضطرارهم إلى مغادرة سفينتهما فى البحر بسبب نشوب الحروب ، واتجاههما إلى داخل آسيا حتى تم التقاؤهما بالإمبراطور الخان الأعظم قبلاى ، ثم عودتهما برسائله إلى البابا الذى وجداه قد توفى ، ورحلتهما إلى البندقية واصطحابهما لماركو فى رحلتهم البحرية الطويلة بدءًا من البندقية إلى عكا . ثم اضطرارهم لتغيير خط سير الرحلة بسبب الحروب أيضاً حتى وصلا إلى مقر الإمبراطور بعد رحلة برية استغرقت ثلاث سنوات ونصف سنة . وأعجب الإمبراطور بماركو وضمه إلى رجال الشرف فى بلاطه وقربه منه .

ويروى ماركو – فى كتابه – كيف تعلم لغات التتار وآدابهم وتقاليدهم وأعرافهم ، مما دفع الإمبراطور إلى تكليفه بمهام عظيمة ومناصب قيادية كبرى ، حرص خلالها ماركو على جمع معلومات من أماكن رحلاته وتدوين ملاحظاته ليرويها للإمبراطور ، الذى أحب هذا فى ماركو وقربه إليه وجعله موضع سره وكلفه بمهام سرية . وهكذا قضى ماركوبولو سبعة عشر عامًا فى خدمة الإمبراطور متنقلا بين سواحل آسيا وأراضيها ، مكتشفًا ومسجلا وملاحظًا وجامعًا للثروة أيضًا . ثم يصور ماركو ظروف رحلة العودة البحرية ، وكيف نجتهم خبراتهم بالملاحة البحرية من قضاء عمرهم بالبلاط الإمبراطورى طبقًا لأوامر الإمبراطور المشددة ، الذى وافق على قيامهم برحلتهم البحرية مضطرا حتى يصحبوا عروس حاكم فارس فى رحلة بحرية آمنة بعيدًا عن الحروب البرية ، وبعد أن تعهد الثلاثى بولو بالعودة عقب زيارتهم للبندقية . وهكذا

منحهم اللوحة الذهبية واعتمدهم كسفراء لدى البابا وملوك وأمراء أوربا ، وزودهم بأسطول ضخم يتكون من أربع عشرة سفينة .

ويصف ماركو تجهيزات الرحلة البحرية وصفًا دقيقًا بقوله : « أعدت العدة لتجهيز أربع عشرة سفينة ، لكل منها أربع ساريات ولكل منها القدرة على الإقلاع بتسعة قلوع ، ويحتاج بناؤها وتزويدها بالأشرعة والصوارى إلى وصف مسهب ، ولكنه رغبة فى عدم الإطالة ألغى مؤقتاً . وكان بين هذه السفن أربع أو خمس على الأقل عليها بحارة عدتهم مائتان وخمسون أو مائتان وستون . وفى تلك السفن نزل السفراء وقد وضعوا الملكة فى حمايتهم ومعهم نيقولوا ومافيو وماركوبولو ، وبعدما استأذنوا أولا فى السفر من الخان الأعظم الذى أهداهم كثيرًا من أحجار الياقوت فضلا عن جواهر أخرى نفيسة كثيرة ذات قيمة عظيمة ثم أصدر توجيهاته كذلك بأن تزود السفن بالخزين والمؤن الكافية لمدة سنتين »[٢]. ويدلنا وصف ماركوبولو للرحلة البحرية على المدى الزمنى الطويل الذى كانت تستغرقه الرحلة البحرية فى ذلك الزمن والمشاق الرهيبة التى كان يلاقيها الرحالة البحريون وركاب البحر بوجه عام . فهو يصف إجمالا الرحلة البحرية الكبيرة التى بدأت بثلاثة أشهر إلى جزيرة جاوة ، ثم انطلقوا من الجزيرة متجهين إلى فارس فى المرحلة الثانية من رحلتهم البحرية الكبرى ، التى استغرقت بدورها ثمانية عشر شهرًا من الإبحار فى « البحار الهندسية » حتى رسوا على شاطئ فارس ، وكانت خسائرهم جسيمة فى الأرواح إذ بلغت ستمائة رجل من البحارة وسواهم بالإضافة إلى وفيات قليلة فى السفراء والسيدات . بل إن ملك فارس العجوز قد توفى خلال الرحلة وتوج ابنه مكانه ، وبعد تسعة أشهر من الراحة بعد عناء الرحلة قضاها آل بولو الثلاثة فى فارس ، واصلوا رحلتهم البحرية قاصدين وطنهم الأصيل « البندقية » ، بعد أن زودهم ملك فارس الشاب بأربع لوحات ذهبية تكفل لهم سلامة السفر والتزود بالمؤن والمعدات والملابس ، واتجهوا إلى القسطنطينية ومنها إلى البندقية التى وصلوها أثرياء أصحاء فى سنة ١٢٩٥ . غير أن ماركو لم يلبث أن اشترك بسفينته فى حرب البندقية مع جنوة ، مما أوقعه فى الأسر . ولكن سجنه ، الذى استمر ثلاث سنوات ، مكنه من تسجيل وقائع رحلاته العظيمة حتى قدر له العودة إلى البندقية سنة ١٢٩٩ .

وفى أقسام الكتاب الثلاثة وفصوله الكثيرة التى تبلغ نحو خمسمائة فصل ، فإن ماركوبولو

(٢) رحلات ماركوبولو ، ص ١٩ .

يغطى بدقة تفاصيل ووقائع رحلاته منذ غادر البندقية ، فيخصص فصلا لكل مدينة أو قرية أو بحر أو بحيرة مر بها ، ويصف جغرافيتها ويستعرض تاريخها ، ويذكر عادات أهلها ودياناتهم وعلومهم وفنونهم فى صور واقعية تتميز بالرؤية الشمولية وبامتزاج الواقع بالأسطورة ، وباعتماد أسلوب الحكاية التقليدية ، مع استرجاع الماضى والاغتراف من الخلفية التاريخية لإضاءة الصورة بأكملها . ونظرًا لضخامة الكتاب وغزارة معلوماته ، فإننى سأكتفى هنا بلمحة عن الأجزاء البحرية من الكتاب التى تتصل بموضوعنا .

ففى الفصل الخامس من الكتاب الأول يتحدث ماركوبولو عن رحلته إلى ولاية « زورزانيا » (جورجيا) وإلى طبيعتها الجغرافية فهى واقعة بين بحرين ، البحر الأسود ، الذى يسميه ماركوبا لبحر الأعظم ، وبحر قزوين أو بحر الخزر أو بحر باكو فى بعض التسميات الأخرى ، ويحدد محيط بحر قزوين بألفين وثمانمائة ميل وأنه لا اتصال بينه وبين أى بحر آخر ، وبه الجزر والقلاع « الرشيقة » التى لجأ إليها الأمراء الوطنيون واحتموا بها من التتار . ثم يذكر أنواع الأسماك التى يمتلئ بها بحر قزوين والأشجار التى ترتفع فوق جزره وطبيعة الناس الأشداء فى تلك الولاية . « فالناس هناك قوم أقوياء البنية ، وبحارة شجعان ، ورماة محنكون ، وجند ذوو جلد فى النزال » . ثم يعرج على جغرافية المنطقة السياسية وتاريخها عندما عجز الإسكندر الأكبر عن غزوها بسبب ضيق الممر المؤدى إليها ؛ « فهو إذ يضربه البحر بأمواجه من ناحية ، ويحده من الجانب الآخر جبال عالية وغابات على امتداد أربعة أميال ، فإن بضعة قليلة من الرجال كانت قادرة على الدفاع عنه ولو اجتمع عليها العالم أجمع » . وينتقل ماركو من الجغرافيا والتاريخ إلى الأساطير التى يحرص على روايتها فى معظم صفحات كتابه . فيروى قصة دير للرهبان يحمل اسم القديس « لوناردو » ، يقع على حافة بحيرة مالحة يبلغ محيط ساحلها مسيرة أربعة أيام . وفى هذه البحيرة تحدث معجزة فى فترة الصوم الكبير من كل سنة ، إذ تأخذ الأسماك فى الظهور فى اليوم الأول من أيام الصوم الكبير ، وتمتلئ بها البحيرة بكميات هائلة حتى ليلة عيد الفصح ، ثم تختفى الأسماك تمامًا فى يوم عيد الفصح ولا تعود إلى الظهور إلا فى السنة التالية فى نفس الموعد . كما يتحدث ماركو عن رحلات التجار البحرية إلى بحر قزوين للاتجار فى الحرير الذى ينتجه أهل المنطقة ويستبدلونه بالسلع الأخرى .

ويخصص ماركوبولو فصلين لرصد أوجه الحياة والطبيعة والبحر والسفن والرياح فى جزيرة هرمز . وهو رصد يجمع بين دقة العالم الرحالة وشاعرية الأديب الفنان وحساسيته الفائقة لصور

الجمال فى الطبيعة . فهو يتحدث عن سهلين فى هرمز يفصل بينهما منحدر خطر غير آمن يتهدده اللصوص وقطاع الطرق « ويقودك هذا المنحدر إلى سهل آخر يمتاز بمنظره الجذاب الممتع ، وامتداده رحلة يومين ويسمى وادى هرمز ، وهنا تعبر عددًا من المجارى المائية الجميلة ، وتشهد إقليمًا يغطيه النخيل ، الذى يعيش بينه طائر الدارج الفرانكولين ، وطيور من نوع الببغاء ، وطيور أخرى غير معروفة فى مناخنا . ثم تصل فى نهاية المكان إلى حافة المحيط ، حيث تقف على جزيرة لا تبعد كثيرًا عن الساحل ، مدينة اسمها هرمز ، يرتاد ميناءها التجار من كل أرجاء الهند ، وهم يجلبون التوابل والعقاقير ، والأحجار الكريمة واللؤلؤ ، ومنسوجات الذهب كما يجلبون أنياب الفيلة (العاج) وأنواعًا أخرى مختلفة من البضائع . وهنا يبيعون هذه البضائع لمجموعة مختلفة من التجار ، يتولون توزيعها فى كل أرجاء العالم »[٣] . ويكتب ماركوبولو تفاصيل حياة السكان وحرارة الجو التى تضطرهم إلى هجرة بيوتهم طوال فصل الصيف ليعيشوا فى أكواخ من الأعواد الخفيفة وأوراق الشجر فى بساتينهم الواقعة على امتداد الشاطئ . ويضاعف ماركو من تصويره لقسوة الجو بذكره لريح حارة خانقة تهب على الجزيرة وتصيب أهلها بالاختناق والموت حرقاً ، لا يجدى معها سوى وضع الأهالى أنفسهم فى مياه البحر حتى تغمر رءوسهم طوال هبوب الرياح الساخنة .

أما السفن المستخدمة فى هرمز فإن ماركوبولو يصفها وصف البحار الخبير فهى من « أردأ الأنواع » وأخطرها فى الملاحة ، لأنها لا تعتمد على المسامير فى ربطها لألواحها بل تربط الألواح بخيوط من الألياف المأخوذة من أشجار جوز الهند ، كما أن خشب السفن من نوع صلب سهل الانشقاق والتصدع حتى لا يتحمل دق مسمار » ، « ولا يستخدم الزفت (القار) للمحافظة على قيعان السفن ، ولكنها تطلى بزيت مصنوع من شحم السمك ثم تسد بالمشاقة . وليس للسفينة أكثر من سارية واحدة ، ودفة واحدة ، وسطح واحد . حتى إذا حملت حمولتها غطيت بالأدم : (الجلود الخام) ، وعلى هذه الأدم يضعون الخيول التى يحملونها إلى بلاد الهند . وليس لديهم مراس حديدية ، ولكنهم يستخدمون بدلا منها نوعًا آخر من أجهزة الرباط الأرضية وهو أمر نتيجته أنه كثيرًا ما يحدث فى أثناء الأحوال الجوية السيئة – (وهذه البحار شديدة العواصف) – أى تدفع هذه السفن إلى الشاطئ وتدمر » .

---

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٥ .

ويصف ماركوبولو بحر الصين معتمدًا على آراء « محنكة الربابنة والملاحين الذين يرتادونه » ، فهو بحر شاسع يحتوى آلاف الجزر المتناثرة (يقول ماركو بأن عددها لا يقل عن سبعة آلاف وأربعمائة وأربعين جزيرة) . وهذه الجزر مأهولة بالسكان وغنية بالذهب والمعادن الثمينة ، لكن الملاحة خطرة بسبب بعدها عن قارة آسيا ، بحيث تستغرق الرحلة الواحدة عامًا أو يزيد ، بالإضافة إلى تعرض السفن لنوعين من الرياح العنيفة رياح الشتاء ورياح الصيف . ويستغل الملاحون رياح الشتاء فى الخروج إلى الجزر ويعودون مع رياح الصيف . كذلك الحال فى خليج كاينان وأنهاره الكثيرة التى تصب مياهها فى سواحله حاملة معها تبر الذهب والنحاس وغيرهما من المعادن الثمينة ، التى يتاجر بها سكان الجزر ، الكثيفة السكان ، والتى يمتلئ بها خليج كاينان ، حيث يضعون الذهب والنحاس ويبادلونها بالقمح الذى تزرعه بقية الجزر الأخرى . ويقول ماركوبولو إن « هذا الخليج من شدة الاتساع وسكانه من الوفرة العددية ، بحيث يبدو وكأنه هو عالم آخر » .

ويلم ماركوبولو فى كتابه بمعظم الجزر البحرية والخلجان والأنهار الآسيوية والثروات الطبيعية والملاحة البحرية فى البحار والخلجان المختلفة والرياح وحركة التجارة والسكان ، وغيرها من المعلومات الغزيرة التى قدمها ماركوبولو لأول مرة إلى العقل الأوربى حتى أذهله ولم ينتبه إلى فائدتها وواقعيتها إلا بعد وفاة ماركوبولو بزمن طويل . انظر مثلا كيف يصف جزيرة « بنتان » الواقعة فى اتجاه ساحل كمبوديا « عند الرحيل من لوتشاك ، والمحافظة على اتجاه جنوبى على امتداد خمسمائة ميل ، تصل إلى جزيرة تسمى بنتان ، وهى جزيرة ساحلها غير آهل وغير منزرع ، ولكن الغابات زاخرة بالأشجار ذات الأريج العطر . ويظل البحر بين ولاية لوتشاك وجزيرة بنتان هذه ، وهى مسافة طولها ستون ميلا ، ضحلا لايزيد عمقه عن أربع قامات ، وهو عمق ضحل يضطر من يبحرون فيه إلى رفع دفاف سفنهم (حتى لا تمس قعر البحر) . وبعد الإبحار فى هذه الأميال الستين باتجاه جنوبى بشرق ، ثم التقدم ثلاثين ميلا بعد ذلك ، تصل إلى جزيرة هى فى ذاتها مملكة ، تسمى مالابور ، وهو أيضًا اسم مدينتها الكبرى . ويحكم هذا الشعب ملك كما أن له لغته الخاصة . والمدينة ضخمة جيدة العمارة . وتدور فيها تجارة جسيمة فى التوابل والعقاقير ، التى تزخر بها المنطقة بوفرة »[٤] .

---

(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

وبالمثل نطالع عشرات الصفحات فى وصف الجزر البحرية والممالك الصغيرة التى زارها ماركوبولو فى رحلاته وغرائب الحياة فيها وسكانها الذين اعتنقوا الدين الإسلامى على أيدى التجار العرب « الذين يترددون عليهم على الدوام » . ووجد ماركو فى بعض تلك الممالك والجزر بعض سكان الجبال من آكلى اللحوم البشرية ، ويصفهم ماركو بأنهم « يعيشون عيش البهائم ، فهم يأكلون لحوم البشر ويتناولون بغير تمييز بين الطاهر والنجس – كل أنواع اللحوم الأخرى . ويوجهون عبارتهم إلى أشياء متنوعة ، وذلك لأن كل فرد يعبد طوال يومه أول شيء يقع عليه ناظراه عندما ينهض من نومه فى الصباح » . ومثل سكان جزيرة « نوكويران » الوثنيون العراة تمامًا أناثًا وذكـوراً ، وسكان جزيرة « انجامان » المتوحشون الذين يصرعون برءوسهم « الكلبية » كل الغرباء ويأكلونهم . وسكان جزيرتى الذكور والإناث ، وهما جزيرتان تقعان على مسافة نحو خمسمائة ميل من الساحل الكورى ، وتفصل بين الجزيرتين مسافة صغيرة لا تتعدى الثلاثين ميلا . ويسكن الجزيرة الأولى نوع واحد من البشر ، هو الذكور ، وتسكن الثانية الإناث « ويزور الرجال جزيرة الإناث ويظلون معهن ثلاثة أشهر متعاقبة ، هى مارس وإبريل ومايو ، فيحتل كل رجل مسكنًا منفصلا مع زوجته . ثم يعودون إلى جزيرة الذكر ، حيث يظلون سائر شهور السنة بغير تواجد أى إناث معهم . وتحتفظ الزوجات بأبنائهن معهن حتى يبلغوا سن الثانية عشرة ، فيرسلون للانضمام وآبائهم . فأما البنات فتحتفظ الأمهات بهن حتى تبلغن سن الزواج ، ثم يمنحهن لبعض رجال الجزيرة الأخرى »[٥]. ويزود الرجال الإناث بالبذور ليزرعنها بدورهن فى جزيرتهن . أما الرجال فيعيشون على البروتين الحيوانى فى اللحوم والأسماك ، فهم صيادون مهرة للأسماك التى يبيعونها طازجة ومملحة للتجار الذين يفدون إلى الجزيرة للحصول على زيت العنبر بالدرجة الأولى .

وعلى بعد خمسمائة ميل من جزيرتى الذكور والإناث ، تقع جزيرة « سقطرى » الكبيرة التى يحترف سكانها صيد حوت العنبر ويحترفون استخراج زيت العنبر ويتجرون فيه . ويصف ماركوبولو طريقة صيادى سقطرى فى صيد الحوت واستخراج زيت العنبر وصفًا دقيقًا يذكرنا بوصف هرمان ملفل لنفس العملية فى روايته الملحمية « موبى ديك » ، الصادرة بعد رحلات ماركوبولو بعدة قرون . وهنا يشير ماركوبولو إلى سبق أهل سقطرى إلى اصطياد حوت العنبر بالحربة والحبل ، وإلى استخراج زيت العنبر أيضاً . يقول ، ماركوبولو « إنهم يتوصلون إلى

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

ذلك بحربونة شائكة ، يرشقونها فى جسم الحوت رشقا قويًا ثابتًا بحيث لا يمكن نزعها . ويثبت فى هذه الحربونة الحديدية حبل طويل ، فى آخره « شمندورة » بقصد معرفة المكان الذى توجد به السمكة متى ماتت . وعندئذ يسحبونها إلى الشاطئ ، ويشرعون فى استخراج العنبر من بطنها ، ويحصلون من رأسها على عدة براميل من الزيت العنبرى » . أما هؤلاء السكان فهم غالبا عراة إلا من غطاء ضئيل للعورتين من الأمام والخلف . وهم يشتهرون بالسحر والشعوذة . ويذكر ماركوبولو أن سحرهم عظيم التأثير فى الآخرين حتى أنهم إذا أرادوا الانتقام من أحد القراصنة فإنهم يوجهون إليه تعاويذهم السحرية . ويزعم ماركو أن هذه التعاويذ كفيلة بتحويل الريح المواتية إلى ريح عاصفة تجبر القرصان على العودة إلى جزيرتهم وأنهم « يمكنهم بالمثل إرغام البحر على الهدوء ، وبإرادتهم يمكنهم إثارة العواصف والتسبب فى تحطيم السفن ، وإحداث تأثيرات أخرى خارقة كثيرة ، لا حاجة بنا إلى الإفاضة فى تفاصيلها »[٦] .

كذلك تستفيد جزيرة مدغشقر من زيت العنبر ومن أنياب الفيلة ، أى من صيد الحوت والأسماك والحيوانات البرية والطيور أيضاً . وتعد الجزيرة مقرا رئيسيًا للسفن المبحرة اتجاه الشرق ، التى تتبادل البضائع والسلع المختلفة مع سكان الجزيرة . ويتحدث ماركوبولو عن طائر « الرخ » الضخم الذى يظهر فى سماء الجزيرة فى وقت معين من السنة ، ويصف ماركو قوة هذا الطائر الجبار بأنه « من الضخامة وشدة القوة ، بحيث يمسك بالفيل ببرائنه ويحمله فى الجو ، ثم يتركه يهوى إلى الأرض ، حتى إذا مات سطا على جثته وافترسها . ويؤكد من شاهدوا هذا الطائر أنه متى بسط جناحيه كان امتدادهما ست عشرة خطوة من الطرف إلى الطرف ، وأن طول كل ريشة ثمانى خطوات ، مع ما يناسبها من الغلظ »[٧] .

كذلك يتحدث ماركوبولو عن ميناء عدن ، مركز السفن القادمة من الهند محملة بالبضائع والتوابل والعقاقير ، حيث يتم نقلها إلى سفن صغيرة تعبر الخليج لتنقل إلى بر مصر بواسطة الجمال فى رحلة برية تستغرق نحو ثلاثين يومًا حتى تصل إلى نهر النيل . ومن هناك تنقل فى سفن صغيرة عبر النهر إلى القاهرة ومنها إلى ترعة صغيرة إلى الإسكندرية . ومن عدن أيضًا تهجم السفن قاصدة الهند وجزرها ، محملة بالخيول العربية ، لتباع بأسعار مرتفعة نظرًا لشدة الطلب عليها .

---

(٦) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٣٢٩ .

هذه هى أهم المعالم البحرية فى رحلات ماركوبولو التى غطت مساحات شاسعة من الكرة الأرضية حتى بلغت القطب الشمالى أو منطقة الظلمات كما أسماها ماركوبولو. وهى رحلات تحوى من الثراء والعمق وروعة الكشوفات الجديدة وتجمع بين الشاعرية ودقة العلم وبراعة الصور الأدبية ، إلى حد الريادة فى أدب الرحلات البحرية الغربى .

٢ – هرمان ملفل وموبى ديك :

هرمان ملفل (١٨١٩ – ١٨٩١) ، روائى البحر الأول ومبدع ملحمة « موبى ديك » الروائية البحرية . كاتب أمريكى من جيل حقق للأدب الأمريكى فنيته ، وقدم أعظم الأعمال الأدبية الكلاسيكية الأمريكية فى الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر. وهى « فترة ذهبية مزدهرة وعصر نهضة وحقبة مميزة فى عالم الأدب » ، كما يصفها ويليس ويجز فى كتابه « الأدب الأمريكى »[٨] ففيها ظهرت أشهر أعمال إدجار آلان بو ، ورواية « موبى ديك » لهرمان ملفل ، وديوان « أوراق العشب » لوالت ويتمان ، ورواية « كوخ العم توم » لهاربيت بيتشر ستاو .

ولد ملفل فى عام ١٨١٩ بمدينة نيويورك واضطرته ضائقة مالية ألمت بأسرته الثرية إلى ممارسة أعمال شاقة والتقلب فى مهن شتى ، فعمل كاتبًا فى محل تجارى وعاملا زراعيًا ومدرسًا ، واتجه إلى العمل فى البحر ثم عكف على كتابة رواياته البحرية . غير أن مؤلفاته لم تلق حقها من الذيوع والانتشار إلا بعد وفاته . وتأخر الاهتمام به إلى العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين . وحدث فى إنجلترا حيث ظهرت المجموعة الكاملة لمؤلفاته ، وتضمنت بعض الروايات البحرية التى كتبها ملفل ولم يقدر لها أن تنشر فى حياته ، وأهمها رواية بحرية قصيرة بعنوان « بيلى بد » يحمل اسم بطلها القبطان « بيلى » ، نشرت فى عام ١٩٢٤ وحققت نجاحًا وانتشارًا فائقين .

قضى هرمان ملفل عدة سنوات فى تشرب موضوع روايته الكبير « موبى ديك » وإثرائها بالجو والمعلومات تمهيدًا لكتابتها . وتشكل استعدادات ملفل لكتابة رواية « موبى ديك » قصة فذة فى حد ذاتها ، منذ عمل بحارًا وصيادًا للحيتان عقب أزمة مالية منيت بها أسرته الثرية واضطرته للتقلب فى مهن شتى كاتباً فى محل تجارى وعاملا زراعيًا حتى ركب البحر فى سن

(٨) ويليس ويجز ، الأدب الأمريكى ، ترجمة الدكتور نظمى لوقا ، ص ٨٩ .

العشرين . فعمل بحارًا فوق سفينة شحن متجهة إلى ميناء ليفربول الإنجليزى ، وصيادًا فى سفينة لصيد الحيتان لمدة سنة ونصف سنة . وهرب مع أحد بحارة السفينة ولجأ إلى إحدى جزر المركيز ، حيث أمضيا عدة شهور ، تعرفا خلالها إلى الحياة الغريبة لسكان الجزر آكلى لحوم البشر . ثم عاد إلى العمل على سفينة لصيد الحيتان شهد خلالها ثورات البحارة وتمردهم . فترك السفينة قاصدًا هونولو ليعمل بحارًا عاديًا على الفرقاطة « الولايات المتحدة » التى أعادته إلى الشاطئ الأمريكى فى بوسطن عام ١٨٤٤ ، ليتفرغ لكتابة أدب البحر و « موبى ديك » . وسجل ملفل كل ما رآه فى الجزيرة مع زميله البحار ، وعلى سفينة صيد الحيتان ، فى « موبى ديك » .

وبالإضافة إلى رحلاته البحرية المتعددة ، زار ملفل ميناء « نيوبد فورد » مركز انطلاق سفن صيد الحيتان وأهم ميناء لزيت حوت العنبر ، ووصفه بإسهاب فى الفصول الأولى من « موبى ديك » كما غاص فى أقبية المكتبات بحثًا عن كل إشارة وردت بكتبها عن الحيتان ، موضوع روايته ، وجمع معلومات وتصورات هامة عن الحوت ورحلات صيده وسفن الحواتة ، أثبتها كلها فى مقدمة روايته بعنوان « مقتطفات أعدها مساعد لخازن مكتبة مساعد » . فقد اعتبر نفسه ذلك المساعد لأمين المكتبة .

هكذا عايش ملفل موضوع روايته ، مع البحر والصيادين والحيتان ، وخبره بعمق ، فقدم عملا رواثيًا ثريًا فذا لم يكتب مثله قط فى أدب البحر حتى اليوم . وصفه برنارد شو قائلا « منذ عرف الإنسان كيف يكتب لم يوجد قط كتاب مثل هذا ، وعقل الإنسان أضعف من أن ينتج كتابًا مثله ، وإنى أضع مؤلفه فى مصاف مؤلفات رابله وسويفت وشكسبير » .

وهكذا أمضى ملفل أربع سنوات من أجمل سنى شبابه فوق مياه البحار والمحيطات وتمرس بحياة البحارة وصيادى الحيتان وخبرها كواحد منهم . ويذكر ملفل على لسان الراوى الذى يتخفى خلف شخصيته ، فى « موبى ديك » أن جامعته الحقيقية التى يتشرف بالانتساب إليها هى سفينة صيد الحيتان ويقول : « إذا وجد من يصفون تركتى – بل دائنى على وجه أدق – مخطوطة نفيسة فى درج مكتبى ، فأنا هنا أعزو ، وأنا أستشرف المستقبل ، كل شرف ومجد إلى حرفة التحويت ، إذ أن الجامعة التى تخرجت منها هى سفينة صيد الحيتان فقد قامت فى حياتى بمقام هارفارد ويبل »[٩] .

---

(٩) هرمان ملفل ، موبى ديك ، ترجمة الدكتور إحسان عباس ، ص ١٩٥ .

ومن هنا تفرد ملفل بأدب البحر الذى كتب فيه كل مؤلفاته : « أربع سنوات من الإقامة بين أهالى واد بجزيرة المركتز (١٨٤٦) ، « أومو » (١٨٤٧) ، « ماردى و« ردبيون » (١٨٤٩) ، « الحرف القرمزى » و « السترة البيضاء » (١٨٥٠) ، « موبى ديك » (١٨٥١) ، « بيير (١٨٥٢) وغيرها من الروايات البحرية . غير أنها كانت أعمالا تتسم بالطابع التقريرى . أما « موبى ديك » فهى جماع لكل خبرات ملفل ورحلاته البحرية ، رواية فنية شمولية ذات طابع ملحمى « من أعظم الأعمال الفنية فى تاريخ الإنسان » كما يصفها الناقد الأمريكى ويليس ويجز . ففيها الشخصيات الملحمية البطولية ، وتجمع بين الكفاح والأسفار البحرية واقتحام البحر والصراع مع الحيتان وبين الرؤية الميتافيزيقية للحياة والكون ومصير الإنسان ، وبين الواقعية والرمزية . إنها كتاب البحر الأعظم ، فلا تقارن إلا بالكوميديا الإلهية وفاوست وأعمال شكسبير وغيرها من عيون الأدب العالمى ، لهذا نخصها باهتمام أكبر من غيرها من الأعمال الروائية فى أدب البحر ، لضخامتها وأهميتها وما أثارته من اهتمام النقاد على مر السنين .

فمنذ صدورها فى منتصف القرن التاسع عشر (١٨٥١) وهى تثير موجات تلو موجات من آراء وتفسيرات النقاد تجاوزت فى حجمها الضخم ضخامة الرواية ذاتها . وقد رأى فيها النقاد تفسيرات اجتماعية وميتافيزيقية واقتصادية وسياسية ودينية . فمن قائل بأنها تصور صراع الإنسان مع الطبيعة ، إلى مفسر لصراع بطلها « آخاب » بأنه نزوع للكلى والمطلق ، إلى تحليل ميتافيزيقى ونفسى بأنها تعكس السعى والبحث عن الأب ، أو الرؤية الاقتصادية التى رأت فى بطل الرواية أنموذجًا للرأسمالى فى سعيه الفردى نحوالاستفادةمن الطبيعة وتصنيع الحوت . من هذه التفسيرات ، الرؤية العربية التى قدمها الدكتور إحسان عباس ، مترجم الرواية ، فى بحثه عن « الأثر الإسلامى فى قصة موبى ديك » . إذ وجد فى الرواية تأثرات عربية وإسلامية تمثلت فى صورها وتشبيهاتها المستمدة من الحياة العربية والطقوس الإسلامية . كذكر صوم رمضان والأذان فوق المئذنة والمفتى وصلاح الدين والإيمان بسيطرة القدر المحتوم الذى يبسط نفوذه على أحداث الرواية ومصير بطلها . « مثل قوله فى وصف البحار الذى حط على جثة الحوت : كأنه مؤذن يدعو الصالحين للصلاة من قمة مئذنة . أو قوله فى تصوير البحارة الهمجيين وهم يمشون : إن عظامهم تقرقع فى كل خطوة كأنها سيوف عربية فى أغمادها . كذلك فهو يستعمل لفظة أمير العربية عند الحديث عن ضباط الباخرة . أو يقول مستعملا لفظة مفتى : هل يمكن

للصياد الذى يبحث عن حوت واحد – حتى لو واجهه – أن يقول إنه هو حقا ، كما لو كان يبحث عن المفتى الأعظم ذى اللحية البيضاء فى أسواق استانبول المكتظة المحتشدة .. »[١٠] وهى رؤية جديرة بالاعتبار إذ تستند إلى ما يقدمه نص الرواية وبطلها من اتجاهات وإيماءات . وقد ذهب إليها بعض نقاد أميركا مثل « جون د . أريكسون » فى بحثه عن « انعكاس البلاد العربية ، ثقافتها وفكرها فى الأدب الأمريكى » ، فقال « أريكسون » إن « وصف ملفيل لقوة آهاب الهائلة وتصميمه قد اعتمدت على وصف المؤرخ الإنجليزى توماس كارليل للنبى محمد فى كتابه : أبطال ، عبارة البطل ، والبطولى فى التاريخ (١٨٤١) كما أننا نجد صورًا إسلامية فى إلماعاته إلى رمضان والحج إلى مكة ، والكعبة وغيرها » . بل إن اريكسون كشف ، فى بحثه هذا ، عن إعجاب ملفل بالعرب وإنه « وجد الثقافة والفكر العربيين ملائمين لطبيعته ، فوصف بلغة الإعجاب سلوك العرب وذلك فى يومياته . وفى محاضراته بعد عودته ، قارن شهامة العرب مع نذالة الغربيين ، والروح الإنسانية المتنورة للخليفة عمر مع الأفعال الهمجية للصليبيين ، لقد رأى فى الإسلام روحانية تتباين مع مادية الغرب »[١١] .

إن أهم ما قدمته ملحمة « موبى ديك » الروائية ، هو كشفها لعالم البحر ، وارتيادها لعالم جديد هو عالم الحيتان ، ومهنة جديدة هى مهنة صيد الحيتان ، وكل ما يتصل بالبحر والحيتان من قوى الطبيعة البحرية . إنها ملحمة البحر ، وداثرة معارفه . ولا شك أنها قدمت للإنسانية ألوانًا من المتع والمعارف ، ومهدت الكثير من الطرق البحرية منذ صدورها فى منتصف القرن التاسع عشر . ومن هنا أكدت « موبى ديك » ضرورة الفن وعذوبته فى آن واحد . كما أبرزت « موبى ديك » ، بشخصياتها البطولية الإيجابية القوية الشجاعة والمغامرة ، القدوة والمثل ، وأنارت الطريق أمام الإنسانية فى كفاحها للسيطرة على قوى الطبيعة واستخدامها لصالح البشرية .

فالبحر عند هرمان ملفل ، فى « موبى ديك » ، دنيا جديدة ، وكشف جديد ، وخلاص من الرتابة ، وانعتاق من القيود الأرضية ، وخروج إلى آفاق البحر الرحبة الممتدة بلا نهاية ،

---

(١٠) الدكتور إحسان عباس ، الأثر الإسلامى فى قصة « موبى ديك » ، مجلة الآداب ، العدد الرابع ، السنة الثالثة عشرة ، نيسان (أبريل) ١٩٦٥ .

(١١) جون د . أريكسون ، انعكاس البلاد العربية ثقافتها وفكرها فى الأدب الأمريكى ، مجلة المعرفة ، العدد ١٩١ – ١٩٢ .

ومغامرة محسوبة بحكم القدر وسطوته ، وإيمان بالخروج إلى الأبدية ، وبحثًا عن الحقيقة والمعرفة والمطلق . وأسهمت خبراته وتمرسه الطويل بعالم البحر ومهنة صيد الحيتان ، ومعايشته الفكرية والموضوعية والحسية لموضوعه الأثير فى البحر وحوت العنبر ، فى إثراء عمله الملحمى بالرؤيا والرؤية ، وزودته بالصور الفنية الشاعرية الجميلة التى تجمع بين دقة الملاحظة وروعة الحدس والإلهام والكشف البحرى والروحى . وحققت الرواية بتحلقيها فى آفاق البحر وآفاق الكون شمولية وعظمة وريادة فى أدب البحر .

فنطالع فى « موبى ديك » الخبرة بحياة صيادى الحيتان والبحارة وموانيهم وحاناتهم ، التى تجلت فى ثراء الصور الواقعية المعبرة عن حياة البحارة والصيادين وصراعات البحر ، للإيماء والنفاذ إلى جوهر الحقيقة والبحث عن المعرفة والمطلق ، والانعتاق من القيود الأرضية والخروج إلى آفاق البحر الرحبة الممتدة بلا نهاية ، والدفاع عن مهنة التحويت وعن بحارة وصيادى الحيتان .

وقد عنى هرمان ملفل برسم الشخصيات الرئيسية والثانوية وبنائها وتطورها وتشابكها وإبداع المميزات والمواقف المنفردة لكل شخصية ، مما جعلها إيجابية وقوية ومؤثرة . ولعل أعظمها شخصيتى القبطان « آخاب » بطل الرواية والبحار المجوسى « كويكوج » . فإن مواقف آخاب وسلوكه وتصرفاته هى التى تؤثر فينا ، كما فعلت شخصية « كويكوج » الثانوية ، المؤثرة والصافية والنقية . لأن ملفل قدمه إلينا عبر تصرفاته وأفعاله ، وليس من خلال السرد والوصف الخارجى .

يضاف إلى ذلك كثافة الصور الفنية وعمقها وشاعريتها فى التعبير من خلال الصور المتتابعة وليدة المعرفة والخبرة ودقة الملاحظة وروعة الحدس والإلهام ، والجمع بين الرؤية الواقعية المباشرة والرؤيا العامة الرامية إلى الكشف الروحى ، والبحث فى جوهر الحياة الإنسانية والمصير الإنسانى وموقعه فى هذا الكون .

فهذا هو ما يدعو الإنسان فى « موبى ديك » إلى اللجوء للبحر . فالبحر هو المضياف الفاتح صفحاته لكل مغامر وطالب لحياة جديدة حافلة بالمغامرات والأسرار ، حياة لا محدودة تغنى لها آلاف الحوريات البحرية من قلوب المحيطات اللا محدودة . ويشبه ملفل لحظات السكينة الحالمة ، التى يقضيها البحارة فوق صدر البحر فى الراحة بين عمليات الصيد ، بالقفاز المخملى الذى يخفى مخلباً ضارياً ، لأنه يسبق العاصفة . فالبحر عند ملفل يجمع بين الهدوء والعاصفة ،

بين الصراع الوحشى والتأمل والصفاء الروحى . فى تلك الأوقات الهادئة يبدو البحر للبحار كأنه بحر مزدان بالأزاهير ، والأمواج كالمروج الخضراء ، ويلتقى الواقع والوهم لقاءً صوفيًّا . وبالرغم من أن منظر سكون البحر وقتى ، إلا أنه يؤثر فى كل بحار بما فى ذلك بطل الرواية القبطان الصارم « آخاب » ، الذى كثيرًا ما يتأمل البحر والكون ، فى صمته ، ويسبح بأفكاره مع أمواجه فى رؤية شمولية للكون والحياة ، حيث يرى الحياة كالأمواج بين مد وجزر إلى أن تستقر الروح فى مينائها الأخير . ويظل « آخاب » يتساءل ، فى أى أثير يبحر هذا العالم ، ما هو سر الروح . فهذا هو المعنى الباطنى الذى يومئ إليه ملفل فى روايته من وراء عرض وقائع الصراع بين الإنسان وحوت العنبر . والرواية شأن كل أدب عظيم ، « يجب أن يومئ إلى شىء ، يختلف عن محتواه وعن شكله الشخصى ، وهو حظيرته الخاصة ، وبه على الضبط يفرض نفسه بوصفه أدبا » ، كما يقول رولان فى كتابه « الكتابة فى درجة الصفر »[١٢] – تجمع بين الإيماء والإيحاء والرمز وبين التصوير الواقعى . فالصراع فى الرواية ، واقعى ورمزى ، مع البحر وحيتان العنبر ومع الروح والقدر . وهو صراع خارجى ظاهرى يدور فى الواقع وصراع داخلى باطنى يدور فى الروح والكون . والأخير هو المغزى العميق الذى يومئ إليه ملفل فى روايته من وراء عرض وقائع الصراع بين الإنسان وحوت العنبر ، صراع أرضيته مياه البحار والمحيطات وسماءه الكون كله .

هذا الصراع الذى جسده ملفل فى شخصية بطل الرواية « آخاب » قبطان السفينة ، وبينه وبين حوت العنبر الأبيض ويدعى « موبى ديك » . ذلك الصراع الدرامى الذى بدأ منذ التهم حوت « موبى ديك » ساق القبطان « آخاب » . ومن ثم أخذ آخاب فى مطاردة « موبى ديك » عبر كل البحار والمحيطات حتى لقى حتفه وفقد سفينته وقواربه ورجاله الثلاثين ، بالرغم من كل انتصاراتهم السابقة فى هذا الصراع الواقعى واصطيادهم لعشرات الحيتان وتزويدهم مستودعات سفينتهم بالمئات من براميل زيت حوت العنبر . فالإنسان ينتصر ، بذكائه وقوته ومهارته ووعيه الفكرى والتاريخى ، على قوى الطبيعة والبحر وحيواناته وتقلباته وعواصفه . أما فى وقائع الصراع بين آخاب و « موبى ديك » فإنه لم ينتصر ، لأن موبى ديك رمز أكثر منه واقع . والصراع نفسه صراع بين الإنسان والمطلق ، بين الإنسان ومصيره ، بين الإنسان وقدره . وأراد ملفل أن يؤكد من خلال مصرع آخاب البطولى سيطرة القدر وسطوته

(١٢) رولان بارت ، الكتابة فى درجة الصفر ، ترجمة نعيم الحمصى ، ص ٥ و ٦ .

على مقدرات الإنسان . فالإنسان لدى ملفل يمكن أن يواجه كل قوى الطبيعة ، وأن ينتصر عليها ويستخدمها لصالح الإنسانية ، ولكن لا يمكنه تحدى قدره لأنه يعيش ويموت بأمر الله .

فى فصل عنوانه « السيمفونية » ويعنى بها عالم البحر ، يصور ملفل الطبيعة البحرية الجميلة كلها ، الفضاء والبحر بلونهما الأزرق غارقين فى اللازوردية الشاملة والهواء الشفاف له وجه امرأة ، أما البحر فإنه بموجاته القوية المتأنية كصدر شمشون وهو نائم وأجنحة الطيور البيضاء الصغيرة كالأفكار الرقيقة . وفى الأعماق الزرقاء الداكنة تتدافع الحيتان وأسماك القرش كالأفكار القوية للبحر « المسترجل » . وفى الأعالى كانت الشمس كملك مخيم تزف الهواء الرقيق للبحر الجسور كما تزف العروس إلى زوجها . وإن هذه السيمفونية الطبيعية الساحرة لتؤثر فى رجل صلب مثل « آخاب » الذى فقد مرحه منذ فقد رجله بين أنياب « موبى ديك » وصار مشدودًا إلى صراع وحيد لمنازلة « موبى ديك » . ومع هذا فقد وقف آخاب فى هذه الطبيعة الساحرة منتصبًا ثابتا شاحبًا متقدًا منحرقًا لقتال « موبى ديك » .

ولكن كيف لا يلين « آخاب » بفعل هذا الجو المحيط الساحر ، إنه ليلين بالطبع ، حتى لتنحدر من عينيه دمعة نزلت فى البحر « ولم يكن المحيط الهادى كله يحتوى ثراء كتلك الدمعة الصغيرة » . فهذه الدمعة هى نتاج الصراع بين سحر البحر الأخاذ وجمال الطبيعة ووحشية الصراع مع موبى ديك ، صراع آخاب مع قدره . ففى هذه الدمعة الرمزية تتجمع حياة آخاب كلها ، وتنساب ذكريات أربعين عامًا قضاها يصارع ويلات البحر ، لم يمض خلالها إلا نحو ثلاث سنوات متفرقة على البر . أربعين عامًا قضاها آخاب فى قيادة متوحدة صلبة جافة مثل طعامه المملح الجاف ، رمزًا للتغذية اليابسة التى عاشت عليها روحه تاركاً زوجة شابة تزوجها مؤخرًا بعد أن بلغ سن الخمسين ورحل إلى البحر . لذا فإنه يتأمل عمره كله كأنه قبض الريح ، عناء فى الصيد ، ومحاولات باسلة لبلوغ الهدف دون وصول إلى سر الحياة والموت الذى ظل يؤرق روحه حتى نفذت إرادة القدر . فمع كل تحمس آخاب للعودة إلى الوطن ورؤية زوجته تحمل ابنه فى انتظاره بالميناء كما يفعل أهل البحارة ، إلا أنه يسير وفقًا لقدره المسيطر عليه ويردد : « إن آخاب هو آخاب ؟ أنا أم الله من ذا يرفع هذه الذراع ؟ » فكل شىء فى الكون يتحرك بأمر الله . ويقول لضابط السفينة صفيه « استاربك » مومئا إلى مطاردته لموبى ديك : « إننا ندار فى هذا العالم كالدولاب الرابع والقدر هو المخل » ، إنه يرى البحر والصيد والتهام

السمك الكبير للسمك الصغير ، ككل شيء فى الكون ، يجرى بأمر الله ، « أجل مهما يكن ما نبذله من كد فإننا ننام فى النهاية فى الحقل » .

فى بداية الرواية يذكر الراوى « إسماعيل » ، وهو نفسه ملفل مؤلف الرواية كما يتضح من خبراته وذكرياته طوال صفحات الرواية ، يذكر إسماعيل كيف أخذ فى التطلع إلى رحلة مائية حول العالم لطرد الرتابة والخلاص من مأزق الحياة اليومية بالبحر ، توقًا للكشف الجديد .

ويصور ملفل ، فى مطلع الرواية أيضًا ، أبناء الأرض المقيدين إلى مكاتبهم ومقاعدهم ومناضدهم ، كالسجناء خلف جدرانهم ، بعيدًا عن الطبيعة والبحر . ثم وهم يذهبون إلى البحر يومًا واحدًا فى عطلة نهاية الأسبوع ، مشدودين إليه ، جماعات وأفرادا ، لسحر الماء ، ونشدانًا للتأمل الفكرى قرين الماء إلى الأبد . ويستعرض الصور التى تؤكد جمال الماء وأهميته للفن والفكر والإبداع والروح .

ويستعد إسماعيل لرحلة صيد الحيتان كقدر محتوم رسمته العناية الإلهية . فإن الحوت الجبار يثير رغبته فى الكشف والتطلع . كما يجذبه تحدى أخطار الحيتان لأنه ميال إلى منازلة الأهوال واجتياز الصعاب ، وهو يصف ذلك بأعذب الكلمات .

وتبدأ رحلة صيد الحيتان بتصوير ميناء سفن الحواته نيوبد فورد ؛ حيث كل شيء يتصل بالحوت وسفن صيده وأصحابها وبحارتها وصناعتها وأيامهم القصيرة على الشاطئ ، فى الحانات والفنادق والمعابد . وينضم إسماعيل مع زميله البحار كويكوج إلى سفينة « الباقوطة » ، المطعمة بعاج الحوت وعظامه ، بعد اجتيازهما لاختبارات دقيقة أجراها ضابط السفينة حول خبراتهما وقوة تحملهما لمشاق الرحلة ، التى تستغرق عادة نحو ثلاث سنوات فى البحار والمحيطات . ويدلنا ملفل على أن العمل جرى على عدم دفع أجرة البحارة ، بل يقسم عليهم الربح فى حصص مقسمة تقسيمًا عادلا لكل حسب عمله بما فى ذلك القبطان . وإن أجر البحار المبتدئ يغطى بالكاد نفقات ملابسه التى تبلى طوال رحلة الثلاث سنوات . فكأنه يقول بأن مشاق الرحلة لا تقدم شيئًا بالمقابل ، مثلها فى ذلك مثل رحلة الحياة .

وهكذا يومئ ملفل إلى أن رحلة صيد الحيتان ليست لها مكاسب مادية تذكر للبحارة فغايتها كلها روحية ، كما تشير روعة التصوير والتعبير عن معادلة البحر الصعبة ، والنفاذ من وراء ذلك إلى جوهر الحقيقة ، والآفاق التى تفتحها الرحلة فى البحر أمام إنسان البحر والصراع بينهما ، عندما تحاول العواصف (الروح) ، رد السفينة إلى الشاطئ . فجهد البحارة هو جهد

الروح للخروج إلى البحر المفتوح والحرية الطليقة على حين « تتآمر أعتى رياح السماء والأرض لتلجئها إلى الشاطئ المستعبد المغلول » . فالحقيقة العليا تكمن فى البحر بلا بر ، لذا فخير نهاية للإنسان « أن يهلك فى ذلك المطلق الصخاب من أن تقذف به الأمواج إلى البر ، ولو كان بر السلامة » . هذا هو المعنى الروحى أو الميتافيزيقى الذى يومئ به هرمان ملفل للبحر ورحلة الانطلاق إلى البحر ، الانعتاق من قيود الرؤية المحدود والانطلاق فى الآفاق الرحبة المطلقة . ويقول الناقد الأمريكى « تشارلز فيدلسون » ، فى كتابه « الرمزية والأدب الأمريكى »[١٣] ، إن الفصل الأول من (موبى ديك) إعلان لوجهة نظر ، وإسماعيل يفتتحه بجعل الترحال والرؤيا شيئًا واحدًا : إن حقل رؤية الإنسان هو البحر . كذلك تتفتح نحو المحيط مدارك الإنسان مثلما تشع شوارع الجزيرة باتجاه الماء ومثلما تحتشد على شواطئها « حشود من المحدقين نحو الماء . أما الآلاف المؤلفة من الناس الفانين المثبتين فى تأملاتهم المحيطية ، الذين يأتون من البر البعيد ، (شمالا ، شرقاً ، جنوبًا ، غربًا) ، فهم متحدون فى تأملهم الصامت فوق المياه . وتحت الجرس المازح تخلق هذه الفقرات الأولية تأثيرًا لحاجة طاغية . إن انجذاب العقل للبحر هو الحياة نفسها كطلب للمعرفة » .

ويدافع ملفل عن صيادى الحيتان ، وعن مهنة التحويت السامية الجبارة . كما يصف ويصور أهوالها وأعمالهاالبطولية التى لا ترقى إليها معارك البحرية المسلحة . ويذكر فى فصل بعنوان « دفاع عن الحيتان » ، كل المعلومات عن تاريخ صيد الحيتان ، وعن أهميته للبشرية كلها . فإن رحلات التحويت قدمت كشوفًا باهرة للإنسانية فى البحار والجزر والموانئ ، وطهرتها من المتوحشين . ومهدت لرحلات المكتشفين وجعلتها هادئة ومسالمة . فإن عشرات من القباطنة المجهولين هم الذين خاضوا فى البحار رحلات مجهولة ، وتمرسوا بصراعات وحشية مع الحيتان وأسماك القرش وسكان الجزر المجهولة . بل إن تحرير بيرو وتشيلى وبوليفيا من الاحتلال الأسبانى يرجع فضله إلى أولئك الحواتين وكذلك تم كشف استراليا بواسطة سفن الحواتين ، التى شقت طريقًا هادئًا وأنقذت المهاجرين الأول من الموت جوعًا بما وزعته عليهم من بسكويت .

ونحن نتعرف إلى أسرة السفينة الباقوطة من الضباط ، إستاربك وأسطب وفلاسك ، قادة ثلاثة من قوارب الباقوطة كقادة الفيالق أما القبطان آخاب فهو القائد العام ، وموجهى الدفة

(١٣) تشارلز فيدلسون ، الرمزية والأدب الأمريكى ، ترجمة الدكتور هانى الراهب ، ص ٤١ .

وزراق الرماح والبحارة . فنعرف خصائصهم وأوصافهم وجنسياتهم وطبائعهم فى صياغة ذكية تحفل بالتشبيهات والتعليقات الطريفة التى تنم عن مرح ملفل ودعابته وفكاهته .

حقا إن ملفل كثيرًا ما يوقف سياق روايته ليحشو بناءها بمعلومات عن تاريخ صيد الحيتان أو نظم صيدها أو عن أجناس الحيتان . وكلها معلومات هامة وجديدة ومفيدة ولكنها تصيب شكل الرواية بالأورام الزائدة . غير أن هذا كان حال روايات القرن التاسع عشر الغنية بالتفاصيل . وهذا هو الفرق بين رواية « موبى ديك » ورواية « العجوز والبحر » لأرنست هيمنجواى المكثفة والمركزة . وهذا ما يجعل رواية ملفل أشبه بدائرة معارف عن البحر والحيتان وموسوعة علمية بحرية . فإن ملفل يجمع فى هذه الرواية بين جهود الباحث النظرية وخبرات البحار والصياد العملية . وهو يعيب على معظم من كتبوا عن الحوت أنهم لم يروا حوتًا حيًّا قط . ولم يكتف ملفل بالبحث فى أقبية المكتبات عن الكتب العلمية وعلم التاريخ الطبيعى والكتب الدينية المقدسة . بل تعداها إلى دراسة صورة الحوت فى دواوين الشعراء العظام الأوائل ليكتشف عن ضخامة حوت العنبر كملك للحيتان ، ثم يعرض لستة أنواع من الحيتان على رأسها حوت العنبر ، فنعرف أن حوت العنبر هو أضخم الكائنات الحية فى الكرة الأرضية وأشدها إخافة وأجلها منظرًا وأكثرها قيمة لما يحتويه من زيت العنبر . وهو يقسم الحيتان حسب أحجامها وأشكالها وأثمانها وألوانها ، ويطلق عليها الأسماء إذا لم تكن لها أسماء أو يغير من أسمائها حسب خبرته الواقعية بصفاتها ومميزاتها . ويشرح حجم الحوت ويصف أجزاءه وطريقة صيده وحمله مربوطًا إلى جانب السفينة ، وتصفية زيته وشحومه وأهمية زيت العنبر وخطورة ذنبه ، وغيرها من المعلومات المتعلقة بعالم البحر والحيتان . ثم يتحول إلى التعريف بضباط مهنة التحويت ، وفئات العاملين فوق سفن صيد الحيتان من بحارة ونجارين وحدادين وأوضاعهم الاجتماعية وعلاقاتهم . وكلها معلومات ترد بشكل تعليمى مباشر وتعتمد على السرد التقريرى والأسلوب العلمى وليس الفنى . ولعل أهم تلك المعلومات تلك التى توضح سلطة القبطان وسطوته وأوامره التى تتطلب الطاعة التامة من الجميع حتى فى سبابه المقذع لهم الذى يحيله إلى ديكتاتور جبار ، بالرغم من صلات الأسرة الواحدة بين العاملين فوق السفينة .

عندما تغادر السفينة الميناء ، يصعد الرجال إلى قمم الصوارى يرقبون ظهور الحيتان ويتبادلون مواقعهم . ولا تخلو الصوارى منهم حتى تعود السفينة من رحلتها الطويلة التى تستغرق ثلاث أو أربع سنوات أو حتى خمس حتى تدخل الميناء مرة أخرى . ويؤرخ ملفل لمهنة راكبى

الصوارى الممتعة ويذكر أن المصريين هم أول من وقفوا على قمم الصوارى . بل يؤكد أن الأهرام المصرية قد بنيت من هذا المنطلق لغايات فلكية . ومعروف أن ملفل زار مصر وبهرته الأهرام وقد أرجع الناقد الأمريكى « أريكسون » المغزى الفكرى لموبى ديك إلى تأثير الأهرام العميق فى ملفل : « لقد أراد ملفل لروايته العظيمة أن تكون (نظرية كاملة عن السماء والأرض ورسالة باطنية حول فن الوصول إلى الحقيقة) . إن موبى ديك قصة خرافية حول مغامرات الإنسان الكونية ، كما قال الناقد شرمان بول ، وفى ذلك الكون ينتصب الحوت كما الأهرام . إن إسماعيل – الذى يراقب الإنسان والحوت – يشبه ملفل المنبوذ الحزين الذى يتجول بين الأهرام بعد خمسة أعوام ، وهو مروع ، متأمل ، ومضطرب فهو شاهد على ثوران ما هو عادى . إن الإلماعات إلى الأهرام فى موبى ديك ليست مجانية . إن الصور الأهرامية شديدة الأهمية فى الرواية » . وقال أيضاً « لقد أصبح الحوت بالنسبة لملفل كما هو الأهرام رمزاً للكون الغامض الذى يجابهه كل الناس ، والذى يجمعهم معًا بطريقة رمزية وجهرية : كما يجر آخاب إلى موت مائى فى آخر الرواية وقد علق بخيوط الحربون التى كانت تربطه بالحوت العظيم »[١٤] .

ويصف ملفل عملية الركوب فوق قمم الصوارى بأنها ممتعة للروح « لأن أرواحهم تتغلغل خلال ضباب المستقبل الكثيف » وأنها مبعث البهجة عند الرجل المتأمل الحالم . وأنه ليصف الموقف فوق الصوارى وصفًا شاعريًا أخاذًا ففيه الخلاص من كل المتاعب والأكاذيب والهموم الأرضية و « الاسترسال الرائع الذى لا تعكره الأحداث ، فلا يسمع خبرًا ولا يقرأ جريدة ولا تضلله ملاحق الصحف وأخبارها المثيرة عن مبتذلات الحياة فى سورة من الهياج لا ضرورة لها ، ولا يسمع عن مآسى الأسر ولا عن كمبيالات مسحوبة على مفلسين ولا عن تدهور الأسهم ، ولا يشغل باله التفكير فى أمر الغذاء لأن وجباته على مدى ثلاث سنوات مخزونة وادعة فى البراميل ، وقائمة الأسعار لا تتبدل »[١٥] .

هنا يغدو البحر الواسع الممتد بمثابة الخلاص الروحى من كل القلق والتوترات الأرضية . ففوق قمة الصارى عزلة الإنسان وخلوته الروحية الممتعة ، واستقراره فى المشاعر لا فى المكان ، لأن المكان شاهق متقلب قارس البرودة ، بل إنه ليشعر بالطمأنينة فى تلك البحار المغربة . كما

(١٤) أريكسون ، انعكاس البلاد العربية ثقافتها وفكرها فى الأدب الأمريكى .

(١٥) موبى ديك ، ص ٢٦١ و ٢٦٢ .

يعترف بأن توالد الخواطر والأفكار فى هذا الموقف العلوى على قمة الصارى كثيراً ما صرفه عن مهمة المراقبة المكلف بها بحثًا عن الحيتان ، لذا فإنه يحذر أصحاب السفن من البحارة المتأملين الذين يحملون فى داخلهم حوار « فيدون » ، الذى تناول فيه أفلاطون موضوع خلود النفس ، فحذار من هذا الشاب الأفلاطونى الحالم الذى هو أنموذج لكثيرين من الشبان الرومانتيكيين الذاهلين الذين اشمأزوا من الهموم الأرضية . وعبثاً يحذر القبطان هؤلاء الشبان الفلاسفة من مغبة التأمل إلا أنهم لا يكفون عن متابعة البحث الروحى ، فأرواحهم تتخلل الزمان والمكان إيماناً بوحدة الوجود والكون .

فى رأس القبطان آخاب توجد آثار الفكر المسهد الذى يتملكه فى كل جولاته على سطح السفينة . ويعد آخاب أول من يبلغ من البحارة عن ظهور الحوت الأبيض بجائزة ذهبية ، هذا الحوت الأبيض هو موبى ديك الذى قضم رجل آخاب فى رحلة سابقة . إن آخاب ليصرخ ويشهق شهقة مرعبة للانتقام من موبى ديك ، تكشف عن تصميمه على مطاردته ومقاومته ومصارعته فى كل مكان فليس المهم الكسب المادى ، بل إنه الانتقام الذى يهدف إلى كسب أعظم ، بانتصار الإنسان على قوى الطبيعة وترويضها . إن آخاب يحتقر الأرباح وكل الأشياء المادية لأنه يبغى النفاذ من وراء الحوت الأبيض إلى جوهر الحقيقة الناصعة ، فالحوت الأبيض هنا رمز للاقتراب من حقيقة الكون والنفاذ إلى جوهر الحياة . فيجتمع لدى آخاب قوة التصميم والتحدى التى تنبثق من داخلنا وتلح علينا بالمضى فى طريق المقاومة الإنسانية . ويسيطر آخاب على رجاله بهذه القوة الصامدة الغامضة فيجعلهم يقسمون على الانتقام من موبى ديك .

إن أهمية شخصية آخاب وفنية رسمها وصياغتها لا تكمن فى تفرده بخصائص ذاتية فحسب بل أيضاً فى قوة شخصيته التى تؤثر فى كل من حوله من شخصيات الرواية البحرية ، وتلك هى أهم سمات الشخصية الروائية . فإنه يمس بجنونه وقوته وشيطانيته وجبروته كل من حوله فيشدهم إليه بقيود لا فكاك منها .

ويفكر الضابط « أستاربك » فى الصراع مع البحر والحيتان بأنه صراع الحياة حتى تقهر المعرفة الروح ، فهذا الصراع هو قتال مع أشباح المستقبل . ويشرب البحارة ويرقصون ويغنون تمهيدًا لمعارك الصراع الرهيبة مع الحيتان وبخاصة مع موبى ديك ، يغنون للبحر والعاصفة والأمواج والحيتان ، فآخاب يطالبهم بقتل العاصفة مثلما تفجر أنبوب الماء بالرصاص .

ويعقد ملفل فصلا خاصا يقدم فيه المعلومات عن الحوت الأبيض « موبى ديك » حتى

يبدو فى صورة أقرب إلى القدر . فنعرف أنه حوت عنبر ضخم وشرس بشكل غير عادى . وأنه يلحق الأذى بمهاجميه ، ويسبب لهم الإصابات والكوارث المميتة ، بدون أن ينجح أحد فى إصابته ، حتى صار مصدر رعب الجميع . فالحوت واقعى ورمزى فى وقت واحد . ونتيجة لتسرب الخرافات إلى رجال البحر والحواتين ، انتشرت الإشاعات المرعبة عن موبى ديك ، إلى حد أن ارتبط بقوى غيبية وخرافية من عالم آخر . وهذا ما حرص عليه ملفل من واقعية ورمزية موبى ديك ، ذلك الحوت المتعطش للدم الإنسانى . ومن هنا بدأ موبى ديك قرينًا لمصير الإنسان يهدده بالفناء . لأن من يقترب منه يذهب إلى الأبدية . بل لقد شاعت عن موبى ديك شائعات تسبغ عليه صفات المطلق فهو موجود فى كل مكان . ونظراً لفشل كل المحاولات الجريئة لصيده فقد تأكدت الشائعات عن خلود ذلك الحوت الأبيض وعدم قابليته للموت بأى نوع من الرماح التى تغرز فى جسمه وقدميه بدون جدوى . « إن الحوت كما كتب تشارلز فيدلسون – هو فى وقت واحد أصلب الأشياء الفيزيائية قاطبة وأكثر الرموز معنى ، قاطبة أيضًا . وأن الفكر المرتجل لإسماعيل يتفاعل مع العالم المادى ليولد معنى رمزيًّا . وهكذا فإن فن ((موبى ديك)) يعتمد على القبول الصريح بالمفارقة المنهجية ، على كون عالم الدلالة ناهضًا من الحقيقة المزدوجة للذات والموضوع ، وعائدًا إليها ، ومنكرًا لها »[١٦] .

وتصور الرواية بالتفصيل المعركة الأولى لآخاب مع موبى ديك بعد أن حطم له قواربه الثلاثة وكيف هاجمه آخاب بسلاحه الحاد غير أن الحوت استدار والتهم رجله ، وهذا ما حمل « آخاب » بحقد هائل تجاه « موبى ديك » وشحنه بالرغبة العارمة فى الانتقام منه ، وهو انتقام واقعى ورمزى أيضًا إذ يحوى كل غضب بنى البشر منذ عهد آدم . أى أنه صراع الإنسانية مع قوى الشر كلها . وهكذا تجمع حقده وجنونه ووعيه وتركزت آماله وخططه فى صيد ذلك الحوت الأبيض ، فى آخاب يعاونه فى ذلك قدر مجنون وبحارة متوحشون شاركوه كراهيته وانتقامه وعداوته للحوت الأبيض حتى لكأنه الشيطان الكبير يطاردونه بإصرار لاجتثاث ذلك الشر من بحار الحياة . فكل شىء فى الرواية يشير إلى جمعها بين الواقعية والرمزية شأن كل عمل أدبى عظيم . ويتحدث الراوى عن بياض الحوت الذى يفزعه أكثر من أى شىء آخر ، فهو بياض رمزى . وهو فى أعمق دلالاته المثالية صورة الشبح أمام الروح . فالقضية التى تعنى ملفل هى التعرف إلى السر الغامض فى الكون الذى يراه موجودًا حتى فى الحيوان الأعجم وفى

(١٦) تشارلز فيدلسون . الرمزية والأدب الأمريكى ، ص ١٩٩ .

موجات البحر البيضاء وفى صقيع الجبال وثلوج السهوب وهذا هو مجال البحث عن تلك الأشياء الغامضة فى الوجود ، وكيف يفك لغز هذا البياض وسحره . إنه يحاول النفاذ إلى جوهر الأشياء وسر الكون وأنه يقول صراحة - إن ذلك كله يرمز إليه الحوت الأبيض . فالحوت الأبيض حوت واقعى ورمزى فى آن واحد ومن هنا يكتسب صراع البطل آخاب معنيين ، صراع واقعى مع قوى الطبيعة ، وصراع رمزى مع قوى الشر للبحث عن سر الكون والحياة والمطلق .

أخذ آخاب ، بعد أن ضمن موافقة البحارة على الانتقام من موبى ديك ، يدرس الخرائط والسجلات البحرية ليحدد مواقع صيد حوت العنبر . حقا إن البحث عن حوت معين فى كل بحار ومحيطات الكرة الأرضية يبدو أمرًا شاقًا ، ولكن خبرة آخاب بتحركات حوت العنبر بحثاً عن الطعام فى مواسم معينة كانت خير معين له فى بحثه الانتقامى الدءوب . وإنه ليعرف خط سير موبى ديك والمواقع التى ظهر عندها فى السنوات السابقة فى موسم الصيد على خط الاستواء حيث رؤى مرارًا وحيث وقعت حادثة التهامه لرجله . وقدر آخاب رحلته إلى تلك الأماكن الاستوائية بسنة كاملة ، قرر أن يمضيها فى صيد الحيتان ، بدلا من الركون إلى الشاطئ يقتله الانتظار والتحرق للانتقام ، ولعله يلقى غريمه الحوت الأبيض يتسكع فى بحار بعيدة عن مواقع غذائه اليومى . لذا خطط آخاب للوصول إلى هدفه بشغل البحارة طوال سنة الرحيل وحتى الالتقاء بخصمه الأبيض أن يشغلهم بأعمال يومية وصيد مربح يقربهم من غايته الكبرى ويبعد عنهم السأم والتراخى فى مهمتهم الكبرى . ويصور ملفل عمليات صيد الحيتان كمعارك كبرى فى الذكاء وقوة الإرادة فى الصراع بين الإنسان وقوى الطبيعة . وهو يرى المسألة كلها فى إطار عبثية الحياة الماثلة لعبثية سيزيف ، فالحياة زحمة والكون كله نكتة عملية ضخمة والإنسان ذاته محور هذه النكتة ، ومع ذلك فإنه يستمر فى الحياة بالرغم مما يقابله من مصائب وحتى الموت لا يغدو فى نظره سوى دعابة . وتثور هذه الرؤية فى حمى المحن وخلال أشد الصراعات فإنه ينظر إلى كل المحن كدعابات وجزء من نكتة الكون . وهذا ما يحدث فى أخطار رحلة صيد الحيتان إذ تكتمل النكتة الشاملة ، ومن هنا فهو ينظر إلى رحلة الباقوطة ويتأمل غايتها الكبرى فى صيد الحوت الأبيض « موبى ديك » كجزء من نكتة ودعابة الكون .

ويحرص ملفل على ذكر العادات البحرية عندما تلتقى بسفن الحوتات فى البحار البعيدة فيأخذ البحارة فى التخاطب والاطمئنان على الحيتان وتحميل الرسائل للوطن وتبادل أخبار البر

والبحر ، وتوحد بينهما المهنة الواحدة والأخطار الواحدة والغايات الواحدة . وهكذا تلتقط سفينة « الباقوطة » من السفن المارة بعض الأخبار عن أماكن ظهور « موبى ديك » .

ويتجسد صراع الإنسان مع قوى الطبيعة فى البحر ، فى المطاردة الناشبة بين سفينة « الباقوطة » وجماعات حيتان العنبر المتراصة فى صفوف فى المناطق الاستوائية الدافئة . وتؤثر المطاردة الإنسانية ، بالسفينة وقواربها ، على عقل الحيتان فيضطرب نظامها وتكاد أن تشل حركتها وتتقلب على صفحة الماء متأثرة بظاهرة القطيع كما يقول ملفل . وهو صراع يقود فيه العقل البشرى حركة الإنسان المغامر لمقاومة قوى الطبيعة والانتصار عليها ، فى أمواج البحر وعواصفه وأنوائه وفى حيواناته البحرية الهائلة كحيتان العنبر . وتتصاعد الأحداث وتتوتر دراميا فى اتجاه ذروة التوتر مع موبى ديك . فالقوارب تحاصرها العواصف ومجموعات الحيتان التى تجمع بين التصميم والهلع ، بين الحصار والتجمع والاضطراب والتخاذل إزاء إصرار الذكاء البشرى والمهارة وقوة المقاومة الإنسانية . ويصور ملفل عالم الحيتان تصويرًا عاطفيًّا أخاذًا ، والصيادون يرقبون من قواربهم أمهات الحيتان وإناثها الحوامل تحت الماء يرضعن صغار الحيتان . بل إنه ليتصور أرواحهم التى لم تزل معلقة بذكريات غير أرضية لم تعرف خطورة الصراع ولم تشعر بعد بأهمية الصيادين وهم يرقبونهم برقة وهدوء ويسميهم ملفل بالأطفال يلعبون بأثداء أمهاتهم فى مرح . كما يصور مناظر العشق والوصال بين الفتيان والفتيات من الحيتان « وهى تعربد وتمرح غير دارية بما ينتظرها من مصير . بل إن ذكور الحيتان يعرفون الغيرة ويحمون إناثهم « من الفتيان الجامحين الخلعاء » فيهاجمونهم ويبعدونهم ، فى صور بالغة الطرافة تعبر عن روح المرح والدعابة لدى هرمان ملفل وهو يصف هذا العالم البحرى الغريب .

وقد حافظ ملفل على تفرد شخصياته الثانوية كما فعل مع شخصياته الرئيسية ، فإنه ينفر من تصوير الإنسان ككتلة عامة لأنه يرى ضرورة تصوير الإنسان وحده على المسرح مهما كان متواضعًا فى عمله أو مهنته . وهذا ما صور به شخصية النجار ، فهو يجمع بين إجادة مهنة النجارة ويجيد عدة حرف أخرى وينفرد فى ممارسة كل الأمور الآلية الطارئة على سطح السفينة كإصلاح القوارب المشقوقة والصوارى المخلوعة والمجاذيف المحطمة ، أضف إلى ذلك صنع أقفاص للطيور النادرة فى البحر من عظام الحوت العاجية إلى أعمال الإسعاف والصيدلة للبحارة أو أن يصنع حلقًا عظميًّا من عظم القرش لأحد البحارة أو يعالج ضرسا آخر . وهكذا يمارس النجار كل المهن ويتميز ببلادة ووعى معًا ، ذلك لأنه كان يعمل بالفطرة ويسرق عقله

فى لحظات مفاجئة . ولكن أهم ما فى هذا النجار الجواب روحه التى اندست فيها الحياة وجعلته يناجى نفسه ويحادث نفسه دائمًا . هذا النجار هو الذى أمره آخاب بصنع ساق عاجية من عظام حوت العنبر . فإنه عمل مزدوج قصد به ملفل إلى تصوير وحشية الصراع بين الإنسان وقوى البحر الحية وإلى انتصار الإنسان الكلى بالرغم من خسائره الجزئية .

أخيراً يشم آخاب رائحة حوت العنبر « موبى ديك » فى الليل ، ويحدد موقعه على هدى رائحته . ويأمر الجميع بالاستيقاظ والصعود إلى الصوارى والنزول إلى القوارب . ونزل هو إلى قاربه لقيادة الهجوم على رأس القوارب لمنازلته . ويصف ملفل موبى ديك فى هدوئه الماكر الذى يسبق العاصفة الهجومية ، بأنه يبدو كقوة إلهية . لأن موبى ديك يسرق ثم يختفى فى الأعماق والكل يترقب ظهوره . وتدور معارك هائلة طوال ثلاثة أيام متتالية بين موبى ديك وآخاب وقواربه وسفينته ، تتحطم خلالها القوارب ويتعرض آخاب للغرق . ويصر آخاب على مواصلة التحدى والمقاومة ، وهو لم يزل فى الماء متعلقًا ببقايا قاربه طالبًا إنزال القوارب الاحتياطية وتجهيزها مع ملاحيها . وعبثًا يحاول معاونه أستاربك إيقاف اندفاعه لمواصلة المطاردة . فيرفض آخاب مصممًا على اتباع صوت القدر ، ويقول إنه إذا كان قد فقد رجلا فإن روحه بمائة رجل مؤكدًا أنه سيصرع موبى ديك فى المرة الثالثة .

ويخوض آخاب المعركة بضراوة ، متحديًا الأمواج العاتية وأسماك القرش ، ومتحديًا الموت ، كأنه يعرف نهايته وأنه لن يكون له تابوت أو عربة جنائزية ، بل ستقتله حبال القنب . هكذا خاطب الأمواج العاتية ورفض الهرب وهدد رجاله بالقتل إذا فكر أحدهم فيه . واقترب آخاب من الحوت وقذفه برمحه الحاد حتى غاص فى لحمه وتألم الحوت بقوة واستدار ضاربًا القارب . وصمد آخاب لضربات الحوت ، بالرغم من إحساسه بتمزق عضلاته وفقد بصره . ويستدير الحوت لمهاجمة السفينة ، ويود آخاب أن يكون على ظهر السفينة وهى فى معركة النهاية حتى يغرق معها ككل القباطنة . ويصيح سابا الحوت متحديا إياه : « سأتمزق وأنا أطاردك . » ويقذفه بالرمح فعلا ، ولكن الحبل يلتف حول آخاب كقدره . فى حين تغوص السفينة فى الماء . وهكذا دفن آخاب فى كفن البحر ، ذلك البطل الملحمى الذى شبهه الضابط « أستاربك » بقلب من الفولاذ الخالص .

٣ – أرنست هيمنجواى والعجوز والبحر :

أرنست هيمنجواى (١٨٩٩ – ١٩٦١) روائى أمريكى من طراز فذ من الكتاب العالقة الذين عشقوا الحياة والطبيعة ، وتمرسوا بالنضال الإنسانى على اتساعه وشموله ، متطوعًا ومراسلا ومحاربًا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الأهلية الأسبانية ، وفى الغابات الأفريقية وفى حلقات مصارعة الثيران الأسبانية . وانعكس كل ذلك فى أهم رواياته « الشمس تشرق ثانية » (١٩٢٦) ، « وداعاً للسلاح » (١٩٢٩) ، « لمن تدق الأجراس » (١٩٤٠) ، وفى البحر الذى عرفه إبان عمله مراسلا حربيًّا فى أوربا ، خلال الحرب العالمية الثانية ، ومشاركا فى غزو نورماندیا عبر البحر وفى تحرير باريس ، وفى بيته الريفى المطل على البحر على ساحل قرية « كوجيمار » الكوبية حيث تعود أن يكتب واقفًا ناظرًا إلى مياه البحر ، وفى صحبته للصياد العجوز « جريجورى فيفتس » طوال عشرين عامًا ، التى انعكست فى آخر وأعظم أعماله الروائية ملحمة « العجوز والبحر » (١٩٥٢) ، الفائزة بجائزتين كبيرتين ، جائزة بوليتزر الأمريكية سنة ١٩٥٢ وجائزة نوبل سنة ١٩٥٤ . « لأستاذيته فى فن الرواية الحديثة ولقوة أسلوبه كما يظهر ذلك بوضوح فى قصته الأخيرة : العجوز والبحر » . كما جاء فى تقرير لجنة نوبل .

إذ تمثل الرواية ثانى أعظم الأعمال الأدبية العالمية ، فى أدب البحر التى صورت صراع الإنسان مع قوى الطبيعة فى عالم البحر ، وجسدته فى صراع بطلها الصياد العجوز « ستياجو » مع سمكة ضخمة جبارة ، ومع أسماك القرش المتوحشة .

وتميزت الرواية بخبرات واقعية بعالم البحر والصيد . التى وصفها هيمنجواى قائلا : « لقد حاولت أن أصنع رجلا حقيقيًّا ، وغلامًا حقيقيًّا ، وبحرًا حقيقيًّا ، وسمكة حقيقية ، وأسماك قرش حقيقية » . وككل فنان أصيل ، أومأ هيمنجواى إلى المغزى العميق لروايته ، فى كلماتها ومواقفها وأحداثها ، التى أكدت قوة الإنسان وصلابته وإمكانيات انتصاره على قوى الطبيعة والشر مهما واجه من هزائم ، وفقًا لمقولته المشهورة بأن « الإنسان يمكن هزيمته ، لكن لا يمكن قهره » .

« العجوز والبحر » رواية قصيرة جدا بالقياس إلى ضخامة رواية هرمان ملفل « موبى ديك » ، فلا تتعدى عشر حجمها . وذلك ناتج من الاختلاف فى المعمار الفنى لكل من

الروايتين ، وهو اختلاف يبين مدى التطور الذى لحق بفن الرواية خلال قرن من الزمان يفصل بين صدور الروايتين . إذ صدرت « موبى ديك » فى سنة ١٨٥١ ، وصدرت « العجوز والبحر » سنة ١٩٥٢ . فقد حشا هرمان ملفل روايته « موبى ديك » ، بالكثير من المقدمات والمعلومات والشروح والتعليقات التى جعلت روايته عملا وثائقيًّا ضخمًا أشبه بدائرة معارف بحرية . أما « العجوز والبحر » فهى رواية فنية مكثفة كروايات النصف الثانى من القرن العشرين ، التى طبع أرنست هيمنجواى بصماته الفنية عليها ، بأسلوبه المكثف وجمله القصيرة الغنية بالمعلومات ، وشاعرية الصور الفنية وعمقها ، التى تعكس ثراء خبراته بتجارب الواقع المعبر عنه .

فبينما كان ملفل يحتاج إلى عشرات الصفحات ليقترب من موضوعه ، نجد هيمنجواى يدخل مباشرة فى صميم أحداث روايته بدون كلمة تمهيد واحدة . فتصور أولى كلمات الرواية قوة الإصرار والتصميم لدى الصياد « سنتياجو » العجوز ، برغم الهزيمة المتصلة التى واجهها فى رحلته السابقة طوال أكثر من ثمانين يوماً بدون صيد والتى انعكست على شراعه الممزق والمرقع الذى « بدا كأنه هو علم للهزيمة المتصلة » ، وصحبه خلال أربعين يومًا منها صبى يعاونه ثم سحبه والداه يأسًا وتشاؤمًا من عجز الصياد العجوز . وهكذا قضى الرجل أكثر من أربعين يومًا أخرى وحيدًا فى قاربه يصارع الأمواج والعواصف وأسماك القرش المتوحشة ويرفض الرضوخ للهزيمة ، ويصمم على مواصلة النضال فى سبيل الانتصار على قوى الطبيعة وتحقيق الصيد المأمول . وصور الروائى بطله سنتياجو وقد تركت المعارك اليومية مع قوى الطبيعة البحرية آثارًا لا تمحى ومعالم ثابتة على كل أجزاء جسمه ، ومع ذلك فقد أضفى البحر وقوة الإصرار ضياء المرح على عينيه نتيجة عدم اعترافه بالهزيمة ، دلالة على عدم قهر روحه .

هكذا يستهل هيمنجواى روايته « العجوز والبحر » مصورًا بتركيز شديد على بطله وموضوعه ومعبرًا عن مفهومه العميق لعالم البحر وصراع الإنسان مع قوى الطبيعة البحرية ، وتأكيده لقوة الإنسان الماثلة فى روحه المقاومة وإمكانياته الإنسانية العقلية الكامنة . فإلى هذا المعنى ، لقوة الإنسان وصموده ومقاومته وإصراره ، يومئ هيمنجواى من وراء عرضه لأنموذج بطله العجوز القوى المتحدى لهزائمه وفشله وكبر سنه . ويبدو أن هيمنجواى نفسه قد فشل فى المضى على هديه ، عندما خارت قواه الروحية وفقد قوة تصميمه ، ووجد حياته فى الكبر بدون إبداع بلا معنى ، فأنهاها منتحرًا برصاصة قاتلة بعد آلام عقلية وروحية عظيمة .

فى « العجوز والبحر » لمحات روحية وإنسانية ونضالية . وينسج هيمنجواى خيوط التعاطف الإنسانى والمودة والعطف فى نسيج العلاقة بين الصبى الصغير والصياد العجوز الفقيرين ويشدهما برباط الرحمة والتعاطف والكفاح فى مهنة الصيد وتجواب آفاق البحار والاغتراف من ذكريات الحياة والنضال فى عالم البحر المتجددة دومًا . إذ يعود الصبى مصممًا على مصاحبة الصياد العجوز « سنتياجو » ، مؤكدًا امتنانه لمعلمه الأول فى مهنة صيد الأسماك . ويحاول سنتياجو منعه من الانضمام إليه فيذكره الغلام برحلاتهما المشتركة التى وجدا فيها العناء والصيد الوفير . وينتقد الصبى مسلك والده الذى لا يثق فى قوة الصياد وصلابته . وهكذا ينضم الصبى إلى الصياد العجوز كرمز لاجتماع الماضى والمستقبل على الثقة بقدرات الإنسان .

وتنساب الصور المعبرة عن معارك البحر الذى شهدها الصبى منذ طفولته مع العجوز ، وعن أخبار الصيادين ونوعيات الأسماك التى نجحا فى اصطيادها وتجمعاتهم فى « بيت السمك » على الشاطئ الكوبى انتظارًا لسيارة الشحن المثلجة التى تحمل الأسماك إلى « هافانا » .

يجمع هيمنجواى فى روايته بين أحداث الزمنين الماضى والحاضر والأمكنة المختلفة من البحر إلى الشواطئ ، وبين الخبرة بعالم البحر والصيد ودقائق مهنة صيد الأسماك ومعداتها وتقاليدها والعلاقات بين الصيادين ، هذا العالم الثرى الذى ينقله هيمنجواى بكثافة وثراء ، فى حوار الرواية الدرامى المحمل بالمعلومات الذى يعد أبرز أدوات الروائى الفنية ، إذ تمتلئ صفحات الرواية بالحوار المتبادل بين الصبى والعجوز وبين الصياد وأسماكه وبين الصياد ونفسه فى مناجاته لروحه . ونطالع فى هذا الحوار تصميم « سنتياجو » على اصطياد سمكة ضخمة تعوضه عما فاته من صيد فى رحلاته الفاشلة السابقة ويؤكد بها قوته وقدرته على تجاوز الهزائم وتحديها .

ويوجه الغلام إلى العجوز سؤالا ذكيًا قائلا : « أترى أن لك جَلَدًا على صيد الأسماك الكبيرة حتى الآن » . فيجيبه العجوز : « أظن هذا . وإنى لأستعين عليها بما عندى من حيل كثيرة » . وهو سؤال كاشف لإمكانيات الإنسان العقلية ومهاراته المكتسبة التى تعينه فى معاركه مع قوى الطبيعة البحرية بالرغم من تقدمه فى السن .

وفى تنقله بين الأمكنة ، يصوّر هيمنجواى كوخ الصياد العجوز الفقير ، ليفصح عن وحدته القاسية بعد وفاة زوجته بدون أبناء وعن فقره وجوعه ، حتى لقد باع كل شىء ليأكل بثمنه . وهى أمور درب العجوز نفسه على تحملها وتجاوزها بل تجاهلها أيضاً . ويأتى هذا

الوصف لستياجو كمبرر لتفرده وإصراره وقوة روحه ، التى تتأكد عبر الحوار المتبادل بين الصياد العجوز والصبى ، كنسيج منفرد من الصيادين ، لأنه أقوى منهم جميعًا على مواجهة الصعاب والتغلب عليها بالذكاء والمهارة وقوة العزيمة ، كما عبر عن ذلك بقوله . « قد لا أكون قويا كما أعتقد ، ولكن أتذرع بكثير من الحيل . وأتزود بالعزيمة » .

ويستخدم هيمنجواى صيغة الحلم ليحلق « ستياجو » العجوز فى أحلامه بعيدًا مع ذكريات الرحلات البحرية على الشواطئ الأفريقية ، فتتدفق ذكرياته مكونة صورًا جميلة تمتزج فيها الطبيعة الأفريقية البكر بأمواج البحر ومياهه الذهبية والفضية بمناظر الجزر وطيور البحر وحيوانات الشاطئ ثم ينتقل من أحلام إلى دنيا الواقع ، ليصور جمال النهوض المبكر للصيادين فى القرية الساحلية الكوبية وهم يحملون صواريهم وأشرعتهم ويتجهون صوب البحر حيث تنتظرهم سفنهم وقواربهم فى لحظات الظلام الأخيرة قبيل انبثاق فجر اليوم الجديد ... ومعهم الصياد العجوز والصبى يحملان أيضًا أدوات الصيد ويتناولان القهوة باللبن على الحساب فى مقهى القرية ، ويحضر الصبى طعم الصيد من أسماك السردين الطازجة المحفوظة فى بيت الثلج ، وما إلى ذلك من الصور التى تشى بخبرة هيمنجواى بعالم البحر والصيد ، وهى خبرة اكتسبها وتشربها طوال سنين طويلة من حياته .

كما يصور هيمنجواى لحظة انطلاق العجوز وحيدًا فى قاربه شاقا مياه البحر بمجاديفه فى لوحة رائعة لطلوع الصباح وحفيف طيور البحر وأسماك البحر الطائرة من حوله ، تصوير الفنان العاشق للبحر وكيف يفكر « ستياجو » فى رقة الطيور التى لا تجعلها تتحمل مواجهة مشاق البحر وغضبة المحيط الرقيق الفاتن المتقلب القاسى . فستياجو ، ككل من يعمل فى البحر ، يعشقه ولا يكف عن تأمله ويتصور البحر امرأة جميلة متقلبة المزاج .

وفى أعماق البحر يلقى ستياجو بخيوطه بعناية ونظام ودراية بأماكن تواجد أنواع الأسماك المختلفة وتجمعاتها فى أعماقه ، التى يتفوق على غيره من الصيادين فى معرفتها ، ومع ذلك لا يواتيه الحظ ، ولا يكف هو عن العمل ، واثقًا فى أمل جديد مع كل إطلالة ليوم جديد . إنه ليرقب الدلافين وهى تطارد أسراب السمك الطائرة مؤملا أن يصطاد فى رحلته سمكة ضخمة تعوض ما فاته من رحلاته السابقة ، ويؤكد بها قوته وقدرته على تجاوز الهزائم وتحديها .

ويرقب الصياد العجوز السلاحف البحرية بقلب طيب مفعم بالحب نحوها فهو يحبها حقا ويرفض أن يصطادها لأن قلوبها تظل تخفق عدة ساعات ، وذلك بعد أن عمل فى شبابه فى

قوارب اصطيادها وأكل بيضها ولحمها ، وشرب زيت القرش برغم مذاقه الكريه إلا أنه منحه القوة والمناعة ، وساعده على مقاومة البرد والحمى والتقلبات الجوية وقوى من بصره . ويتابع سنتياجو أسراب الطيور البحرية وهى تطير وتهبط منقضة على أسراب الأسماك فى حين هو يخاطب نفسه بصوت مرتفع كما تعود فى أيام وحدته السابقة على قاربه ، إنه لا يفكر إلا فى هدفه الذى خرج إلى البحر من أجله ، ألا وهو اصطياد سمكة ضخمة تؤكد قوته وقدرته على تجاوز الهزائم وتحديها .

يقضى الصياد العجوز خمسة وثمانين يومًا بدون صيد ، ومع ذلك ظل يترقب صيده العظيم وينام معلقًا حبال الصيد حول أصابع قدميه لتوقظه فى الوقت المناسب . بالفعل لا يتمكن العجوز من النوم لأن الخيوط أخذت تشد أصابع قدمه إيذانًا بظهور سمكته الكبيرة المنشودة . فتنتعش روحه ويحدث السمكة بل يغازلها داعيًا إياها إلى أكل الطعم وطالبًا عون الله عليها . وتبدأ معركة المهارة مع السمكة الضخمة يفوز بعدها سنتياجو بصيدها ، غير أنه لا يقوى على رفعها بسبب ضخامتها وضعفه . ومن ثم تظل السمكة الضخمة حية قوية فى الماء بالخطاف وتأخذ فى شد القارب وجره معها فوق سطح الماء بدون أن يقوى على إيقافها فيربط الصياد حبلها إلى ظهره ويقرر ألا يدعها تفلت منه مهما ساقته بعيدًا فى البحر . وهكذا تبدأ المعركة المحورية فى رواية هيمنجواى « العجوز والبحر » بين الصياد العجوز والسمكة الضخمة ثم مع أسماك القرش المتوحشة ، بين إرادة الإنسان وروحه المقاومة وبين قوى الطبيعة الجبارة . تلك المعركة التى استغرقت ثلثى صفحات الرواية ودارت عبر الليالى والأيام . وكل منهما مصمم على إحراز النصر على الطرف الآخر فقد ارتبط مصير كل منهما بمصير الآخر . إنها معركة فى المهارة والذكاء وقوة الإرادة . تتجسد صورها فى مشاهد واقعية متتالية تنقل صور الصراع بين الصياد والسمكة ، وفى قوة تصميمه على مواصلة النضال حتى الموت صائحًا فى السمكة : « أيتها السمكة .. سأظل معك حتى أموت » فعندما تبدأ السمكة قضم طعم أحد الحبال يسارع الصياد إلى قطع الحبل ومحاصرة السمكة بمجموعة من الحبال الاحتياطية القوية المترابطة . وتشد السمكة الحبل موقعة العجوز حتى لترتطم رأسه بأخشاب القارب محدثة جرحًا داميًا تحت عينيه .

وفى هذه المعركة لا يقاوم العجوز السمكة وقوى الطبيعة فحسب ، بل يقاوم أيضاً جروحه وضعفه وكبر سنه ووحدته فى البحر العظيم . لذا فإنه يحادث نفسه ويخاطب طيور البحر

والدلافين والسمكة الخصم أيضا ، فيقوى روحه وينعشها بأحاديثه وآماله المعقودة على تحقيق الانتصار على السمكة . ويقوى جسمه بإجباره على التهام كل الطعام الموجود معه ، حتى تلتئم جروحه ، ويتحمل كل آلام الظهر التى تسببها له السمكة فى معركة شد الحبل بينهما ، معركة الحياة والموت .

ويصف هيمنجواى ضخامة السمكة بأنها أطول من زورق العجوز بقدمين . وقدر العجوز بذكائه أنه لا يقوى مع حباله على التصدى لها بقوته المحدودة ، ولكن يمكنه ذلك بمهارته فى جذب الحبل وإرخائه ، وأنه يجب عليه أن يتغلب على ضعف يديه وتقلصاتها التى يصمم على فكها حتى تقوى على التحكم فى الحبال . إنها معركته وهى ككل معاركه سبيل لتحقيق ذاته وإثبات مهارته وتفرده وتفوقه على عنائه ومتاعبه وجراحه . ومن ثم يرجع هينمجواى ، بأسلوب الارتداد للماضى ببساطة وبدون افتعال ، إلى ذكريات القوة فى شباب العجوز ، فتلك إحدى وسائل العجوز للاستعانة بماضيه وتاريخه على تقوية موقفه ، عندما يوقن العجوز أن المعركة كلها تدور حول روحه وتصميمه على المقاومة ، فإنه يرجع بذاكرته إلى معاركه السابقة على الشواطئ مع البحارة فى ألعاب اختبار القوة التى طالما انتصر فيها بقوته الشابة ، المولية ، وحقق ذاته واستحق أن يسمى بالبطل ، وتشد هذه الذكريات من أزره فيتمكن من اصطياد دلفين لطعامه ويضعه فى قاع قاربه مؤمناً طعامه ليوم وليلة مؤكدًا أنه أحرز تفوقًا على السمكة بنجاحه فى تأمين طعامه وتموينه . فيذبح الدلفين ويتناول بعضًا من لحمه النيئ ثم يخلد إلى الراحة على حين كانت حبال السمكة ملتفة حول وسطه حتى يعطى جسمه الراحة وذهنه التوقد ، موقناً من أهمية يقظة فكره وتوقد ذهنه .

ولكن هل تدعه السمكة الضخمة للراحة إنها لتثب وثبات عالية فوق مياه المحيط محاولة التخلص من قيودها والانتصار على خصمها بقلب زورقه غير أن العجوز يتنبه ويرخى الحبال للسمكة حتى يمنعها من تحقيق غرضها ، فى حين هو يحادث نفسه مؤكدًا ثقته فى مهارته وقوة تصميمه وتحمله للألم قائلا : « خير لك أن تتزود بالثقة بذاتك ولا تخف شيئًا أيها العجوز . إنك لا تزال ممسكاً بها . » ثم قال : « لا بأس إن احتمال الآلام من شيم الرجال » . وقال يستجمع عزمه : « لا ينبغى أن أسقط وأفشل وألقى مصرعى أمام سمكة كهذه ، ولا سيما أنها تسعى نحوى الآن سعياً جميلا ، فليعنى الله على الاحتمال » . « وناجى نفسه : لا تقلص بى والحمد لله وستصعد السمكة حالا وأنى لا أستطيع أن أصمد لها . يجب أن تصمد أيها

العجوز ، ولا تدع كفايتك موضع جدل »[١٧] .

هكذا يصمد سنتياجو الإنسان العجوز فى مواجهة السمكة ولا يخاف من ضخامتها ومقاومتها بل يستعد بحيويته ليسدد ضربته النهائية إلى قلبها ، ويجمع سنتياجو كل قواه وتاريخه البحرى ويطعن بحربته السمكة طعنة الموت محققًا الانتصار فى معركة رهيبة حاولت فيها السمكة أن تصرعه وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة وتغمر بدمائها الحمراء القانية مياه البحر الزرقاء الداكنة . وفكر سنتياجو بعمق « إننى عجوز مجيد . ولكنى صرعت هذه السمكة .. التى هى أختى . وعلىّ الآن أن أقوم بعمل العبيد .. » فقد انتهت المعركة حقا ، معركة الإرادة والذكاء بين الإنسان والسمكة تحقق فيها للإنسان الانتصار . ولم يسترح الصياد لأن مفهوم الحياة عند هيمنجواى يتمثل فى الاستمرار والعمل والنضال الذى لا يعرف الراحة وبالفعل لم يسترح الصياد بل شرع على الفور فى حصاد المعركة بربط السمكة الضخمة إلى قاربه والعودة بها إلى البيت ليس من أجل الثروة بل ليشعر بقوة طعنته فى قلبها . وبدأ رحلة العودة إلى الشاطئ بصيده الضخم وهو يلتهم بعض الجمبريات والأسماك الصغيرة ليقوى على إتمام الشوط ساحبًا السمكة فى الماء مبحرًا بها إلى جانب زورقه .

ولا ينتهى الصراع الإنسانى مع قوى الطبيعة بانتصار سنتياجو على سمكته الكبيرة ، بل يتجدد مع أسماك القرش المتوحشة التى تجمعت حول دماء السمكة النازفة ، وأخذت فى مطاردة السمكة المشدودة الموثقة إلى الزورق . وهكذا تجددت المعارك بين سنتياجوالعجوز وقوى الطبيعة ممثلة فى أسماك القرش المتوحشة التى تريد أن تحرمه ثمرة انتصاره .

ولا يتبع هيمنجواى فى روايته أساليب السرد أو الوصف الخارجى أو توثيق المعلومات ، وإذا فعل فإنها ترد على لسان شخصية العجوز البطل الإنسانى الفذ ، البطل بقوة روحه ومهارته وتصميمه ، ولكنه يعبر عن طريق الصور الفنية ومواقف الصراع الدائر فى الرواية . ومن الصور الجميلة المعبرة عن هذا الصراع المتجدد بداية المعركة بين القرش والصياد العجوز التى يصورها هيمنجواى بدقة ، مصورًا التهام القرش لقطعة كبيرة من السمكة وتصويب البحار العجوز لحربته إلى رأس القرش مصيبًا مخه إصابة قاتلة . غير أن دماء السمكة لم تلبث أن سالت مهددة بتجمع المزيد من أسماك القرش وتجدد المعارك ، بعد أن فقد العجوز حربته فى رأس القرش الغارق . ويصور هيمنجواى الصراع الداخلى فى أعماق العجوز بين الاستسلام

(١٧) أرنست هيمنجواى ، العجوز والبحر ، ترجمة صالح جودت ، ص ١١٠ .

للدعة على الشاطئ وبين الاستمرار فى المقاومة ولكنه يحزم أمره مؤكدًا أن « الرجال لم يخلقوا للهزيمة . وقد يهلك الرجل بدون أن ينهزم » . فبطل هيمنجواى ليس بطلا خارقًا هرقليًا ، ولكنه يناضل مستعيناً بتجاربه وخبراته وقوة عقله وروحه ، لذا يقول العجوز : « ينبغى لى أن أفكر ، لأن التفكير هو كل ما بقى لى من قوة » .. فلا مكان لليأس « إنها لحماقة أن يستولى اليأس على المرء . كما أن اليأس خطيئة فيما أعتقد »[١٨] .

وتنهش أسماك القرش المتوحشة فى لحم السمكة وتهدد مصير الزورق والعجوز أيضاً ، الذى يظل على صفاء ذهنه ويبتكر آخر أسلحته بأن يثبت السكين فى المجداف ويصنع منه حربة يسددها إلى جسم القرش ورأسه فى ضربات متتالية حتى يحطمه . ولكن بعد أن مزق السمكة وانسابت دماؤها من جديد مجمعة المزيد من أسماك القرش . ولم يعد لدى العجوز ما يصلح كسلاح سوى عصًا ومجدافين وقضيب الدفة وهراوة راح يضرب بهما رءوس أسماك القرش فى أثناء انتزاعها للحم السمكة فأصابها ولكنه لم يقض عليها . وتجمعت جحافل القرش لتنهش بقية لحم السمكة غير مبالية بضربات العجوز حتى لقد التهمت هراوته . فاستعان بالقضيب الحديد وأخذ يضرب به القرش حتى تحطم ولم يبق إلا طرفه الحاد فسدده إلى القرش مجبرًا إياه على الفرار ولكن السمكة كانت قد انتهت تمامًا بين أنياب القرش الحادة . وهنا عانى العجوز مرارة الهزيمة وجدف صوب الشاطئ طالبًا الراحة والسكينة . ورسا على الشاطئ بقاربه وقد تعلق به الهيكل العظمى للسمكة الضخمة وحمل صاريه واتجه صوب كوخه وقد حل به التعب والوهن حتى انكفأ على وجهه أكثر من خمس مرات فى الطريق . وفى الكوخ حنا عليه الصبى وتركه نائمًا حتى استرد بعض قوته وقرر أنه أخيرًا هزم ويقول له الصبى بأن السمكة لم تهزمه فيوافق العجوز قائلا : « بل جاءت الهزيمة فيما بعد » . ويتفقان على معاودة الإبحار من جديد بتشجيع من الصبى رمز الإنسانية المتجددة . ويستخلص الصياد العجوز الدروس من تجربته الأخيرة مع القرش والبحر لتعينه فى صراعه المقبل الدائم مع الأسماك وقوى البحر . قائلا : « نحن فى حاجة إلى رمح قوى لنصرع به الأسماك ، نحمله معنا دائماً فى الزورق . ونستطيع أن نصنع حده من رقيقة قوية من سيارة فورد قديمة . ونستطيع كذلك أن نخرطه فى جوانا باكوا .. يجب أن يكون حادا ، ولا ينقصم .. لقد انكسرت سكينى »[١٩] .

---

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

(١٩) المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

لقد هزم الصياد العجوز « سنتياجو » بعد صراع مجيد مع قوى البحر كسب أغلب جولاته وخسر الجولة الأخيرة ، ولكنه لم يهلك ولم يقهر بل صمم على مواصلة الكفاح والنضال والمقاومة . وهذا هو المغزى العميق للحياة الإنسانية الذى يومئ إليه هيمنجواى من خلال تصويره للصراع الدائم المتجدد بين الإنسان وقوى الطبيعة ، والإصرار على الاستمرار وتحقيق الانتصارات ودفع عجلة التقدم الإنسانى .

٤ – والت ويتمان وأوراق العشب :

فى عام واحد (١٨١٩) ولد أديبان أمريكيان عظيمان ، هرمان ملفل ، صاحب ملحمة « موبى ديك » الروائية ، ووالت ويتمان مبدع ديوان « أوراق العشب » من أعظم الأعمال الشعرية فى أدب البحر واللجوء إلى الطبيعة فى العالم ، وأكثرها حيوية وتألقًا فى الأدب الأمريكى خاصة والأدب العالمى بوجه عام . ثم رحلا عن عالمنا فى سنتين متتاليتين ، ملفل فى سنة ١٨٩١ ، وويتمان فى سنة ١٨٩٢ .

ولد والت ويتمان فى « لونج آيلند » من ضواحى نيويورك ، لأسرة فقيرة ، فالأب فلاح ونجار صغير ، والأم تنحدر من أصول هولندية وقد تلقى ويتمان بعض التعليم الأولى فى طفولته بمدارس « بروكلين » التى انتقلت إليها أسرته وقتئذ . ولم يلبث أن ترك مقاعد الدراسة ليلتحق بالعمل فى مهنة الطباعة فتقلب فى أعمالها وعمل بالتدريس لبعض الوقت ، حتى ارتقى ليعمل محررًا صحفيًا ثم محررًا صحفيًا وكاتبًا أديبًا فى صحف بروكلين ونيويورك . وعندما بلغ سن الحادية والثلاثين أصدر روايته الأولى « فرنكلين ايفنز » غير أنها لم تثر اهتمامًا يذكر . فانتقل للعمل فى صحف « نيو أورليانز » وهناك بدأ ينشر قصائده الشعرية ، وأشهرها بعنوان « الإبحار فى المسيسبى فى منتصف الليل » ، التى جذبت إليه اهتمام النقاد . ومن ثم عاد إلى بروكلين ليشرف على دار للنشر والطباعة ويواصل إبداعاته بكتابة الشعر الحر المتحرر من القافية والوزن ، حتى أصدر ديوانه العظيم « أوراق العشب » (١٨٥٥) الذى صف « ويتمان » حروف طبعته الأولى المحدودة بنفسه . وظل ويتمان يعيد بناء وصياغة كل طبعة من طبعاته بالإضافة والتعديل طوال أربعين عامًا حتى صدور الطبعة العاشرة فى سنة وفاته ١٨٩٢ . وقد أقبل عليها القراء حتى نفذت جميع الطبعات فور صدورها وأثرت تأثيرًا عظيمًا فى الحياة الأمريكية وفى الأدب العالمى ، ويذكر « ويليس ويجر » فى كتابه عن « الأدب

الأمريكى »[٢٠] ، أنه أثر فى الدور العالمى الذى أخذت تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الأولى ، و « أن ويلسن (الرئيس الأمريكى) اقتبس نقطه الأربع عشرة المشهورة – التى كانت الأساس لختام الحرب العالمية الأولى – من ويتمان » .

كذلك لاقى ديوان « أوراق العشب » استجابة واهتماما فى العالم بأسره خلال حياة كاتبه بدأ من إنجلترا التى وزع فيها الديوان على نطاق واسع سنة ١٨٦٦ ، وقد تأثر به كل من باوند واليوت فى أشعارهما اللاحقة ، إلى ألمانيا التى قرأت الديوان ابتداء من سنة ١٨٦٨ بترجمة الشاعر الألمانى « فرديناند فرايلجراث » وترجمات وطبعات متعددة . أما الترجمة الألمانية الصادرة بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩٢٢ فقد عدها الأديب الألمانى الكبير توماس مان « هدية عظيمة ، هامة ، ومقدسة حقا » . كذلك اهتم بترجمة الديوان إلى اللغة الروسية كل من تولستوى وتورجنيف فطبع فى عشر طبعات حتى سنة ١٩٤٤ . ووصف الأمير ميرسكى « ويتمان » بأنه « كان آخر شاعر عظيم فى الحقبة البورجوازية من تاريخ البشرية ، فهو آخر السلالة التى تبدأ بدانتى ... وهو مجدد عظيم حقا . بل هو أعظم مجدد عرفه الشعر » . وشبهه الشاعر الأسبانى العظيم لوركابلحية ويتمان الذى خرجت منها فراشات الشعر الأمريكى مثلما خرجت القصة الروسية من معطف جوجول . وظل الديوان يؤثر برمزيته فى عشرات الشعراء والأدباء فى الشرق والغرب من « لافورج » و« اليوت » غربا إلى « طاغور » شرقًا . وفى الوطن العربى صدرت ترجمة وحيدة لمختارات من أشعار « أوراق العشب » بقلم الشاعر العراق سعدى يوسف[٢١] ، الذى اعتبر ويتمان « شاعر أمة فى دور نهوض » ، « وشاعر ثورة شعرية امتدت إلى أوربا ، وآتت أكلها ، فقصيدة النثر ما كان لها أن تشق سبيلها الأوربى لولا إسهامة ويتمان الكبرى .. » وإلى هذه الطبعة ترجع المقتطفات الواردة هنا .

قال ويتمان : لن يستوعب أحد أشعارى إذا أصر على اعتبارها انجازًا أدبيًّا ، أو محاولة إنجاز أدبى ، أو استهدافا للفن والجمالية » . لأن قصائده رمزية مثل رمزية رواية ملفل « موبى ديك » . ولأنه ينشد الخلق لا الرصد والكشف لا التسجيل وإعادة التكوين لا النقل . وفى هذا الاتجاه يقول الناقد الأمريكى « تشارلز فيدلسون »[٢٢] . – فى كتابه « الرمزية والأدب

---

(٢٠) ويليس ويجر ، الأدب الأمريكى ، ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٢١) والت وايتمان . أوراق العشب ، ترجمة سعدى يوسف ، ص ١٠ .

(٢٢) تشارلز فيدلسون ، الرمزية والأدب الأمريكى ، ص ٢٨ .

الأمريكى » – عن منهج ويتمان الجديد ومغزاه : « نهض منهجه الجديد ليس فقط على حس الرؤيا الخلاقة – وهى نفسها سياق يفضى إلى عالم فى سياق – وإنما أيضاً على حسن التلفظ الخلاق كجزء لا يتجزأ من ذلك الوعى . إن (الأنا) فى قصائد ويتمان تتكلم العالم الذى تراه ، وترى العالم الذى تتكلمه ، التى يشارك فيها القارئ . وإن معظم قصائد ويتمان ، بشكل صريح غالبًا ، رحلات بالمعنى الميتافيزيق . وقد كان هذا نوع ويتمان ، نظريته الجديدة فى التأليف الأدبى للأعمال التخيلية » . ويشبه « تشارلز فيدلسون » رحلة ويتمان برحلة آخاب بطل « موبى ديك » الرمزية ، فى تجاوز كل الرحلات البحرية . « فالمياه العميقة » لدى ويتمان هى بعد كل شىء « بحار الله » . ويضيف فيدلسون « إن العداء للعقلانية فى الرحلة الرومانتيكية استعراض إرادى للمشاعر ، فالبحر الرومانتيكى صورة عالم خاضع للانفعال . لكن الرحلة الرمزية سياق صيرورة . إن ويتمان أقل اهتمامًا باستكشاف الشعور منه باستكشاف زى الوجود . وهكذا فإن قصائده ليست فقط عن الترحال ، بل تفعل الرحلة بحيث يكون محتواها أو صورة الرحلة الميتافيزيقية انعكاسًا بالأساس للمنهج الأدبى الذى يصير فيه الكاتب وموضوعه جزءًا من تيار اللغة » .

تجمع أشعار والت ويتمان بين الرمزية والواقعية والرؤية الكونية الشمولية ، وتتميز بحب الطبيعة والتغنى بالعودة إليها ، من منطق رمزى واقعى ينهض فيه الرمز على أساس معطيات الواقع ومحسوساته وشخصياته . ولعل أجمل قصائد ويتمان المعبرة عن حبه للبحر والطبيعة واللجوء إليها والممثلة لمنهجه الشعرى الحر المرسل ، قصيدته « أغنية نفسى » المكونة من اثنين وخمسين مقطعًا . ففى هذه القصيدة يلجأ ويتمان إلى الطبيعة وإلى البحر وإلى السفن المبحرة ، بعد أن استوعب جيدًا هموم البشر والمدن التى استعرضها فى قصيدته اعتمادًا على تمرسه بالواقع الأمريكى . فإنه يلجأ إلى الطبيعة والبحر ليس رفضًا للحضارة والمدنية ، كما كان يفعل روسو فى لجوئه الرومانسى إلى الطبيعة ، ولكن تحقيقًا للثورة والديمقراطية والعدالة ، وطموحًا إلى عالم جديد أكثر جمالا وعدالة وحرية . ففى المقطع الرابع من قصيدته « أغنية نفسى »[٢٣] يعبر « ويتمان » عن معاناته للهموم اليومية الواقعية قائلا :

الجوابون والسائلون الذين يحيطون بى
والناس الذين ألقى

(٢٣) أوراق العشب ، الترجمة العربية ، من ص ٦٢ إلى ص ١٤٦ .

وميسم حياتى الأول
والحى ، والمدينة ، اللذان أعيش فيهما
أو الأمة
والمواعيد الأخيرة ، والمكتشفات والمخترعات والمجتمعات
والمؤلفون : الجدد والقدامى
وطعامى وملابسى ومعارفى ونظراتى وتحياتى وفعالى
التجاهل الحقيق أو المزيف لرجل ما أو امرأة أحبها
مرض قريب لى ، أو مرضى أنا
أو العمل الردىء
أو خسارة المال ، والحاجة إليه
أو الخذلان أو الازدهار
المعارك وفظائع حرب الأشقاء
وحمى الأنباء الغامضة ، والأحداث القاسية
هذه كلها ... تأتينى أيامًا وليالى ... وتغادرنى
ولكنها ليست أنا نفسى

وهكذا يحدد ويتمان ملامح معاناته الإنسانية ، ويرنو إلى الصدق والبراءة والعدالة والحرية والجمال ، فى المقطع الثانى والعشرين من قصيدته ، وكلها توق إلى البحر الذى يداوى كل جراحات الأرض وعذاباتها وهمومها . إنه ينادى البحر ، نداء الخلاص :

وأنت أيها البحر !
إنى أتطامن إليك أيضًا ..
إنى أخمن ما تعنى
إنى أمسك من الشاطئ بأصابعك الملتوية التى تدعونى
إنى أومن بأنك ترفض الارتداد دون أن تحس لى ...
إذن ...
فليأت دورنا :

أتعرى ...
فأبعدنى عن مرأى اليابسة
وأضجعنى الضجعة الناعمة
ولتؤرجحنى فى نعاس متماوج
ولتغمرنى بالرطوبة العاشقة ...
فأنا أقدر أن أرد لك الجميل .
يا بحر جراحات الأرض المديدة
أيها البحر المتنفس أنفاسك الواسعة المتشنجة
يا بحر دموع الحياة
والقبور المنتظرة التى لم تحفر بعد
يا مثير العواصف أيها الترق والمرهف
إننى مثلك
ذو الوجه الواحد
وذو كل الوجوه .

وفى المقطع التالى من القصيدة (الثالث والعشرين) يمضى ويتمان فيؤكد أنه يقبل بحقائق الواقع والعلم ، ويقر بأن أعمال الكيماوى ومؤلف المعاجم والجيولوجى والبحار كلها أعمال نافعة ومفيدة ، ولكنها لا تشكل عالمه الأثير ، عالم المساواة والديمقراطية والحرية .

أيها السادة ، لكم التشريف الأول ، دائماً !
إن حقائقكم نافعة ، لكنها ليست مسكنى
فأنا أدخل بها فى منطقة مسكنى
الذين يذكروننى بالممتلكات ... لا يخبرون كلماتى إلا قليلا
أما الذين يذكروننى بحياة لم تعرف ، وبالحرية ، وبالخلاص
فهم يخبرون كلماتى بالكثير
ولا يتحدثون كثيرًا عن الخنثى والخصى
ويفضلون الرجال والنساء الأكفاء

ويدقون صنج الثورة النحاسى
ويقفون مع المشردين
ومع أولئك الذين يكيدون ويتآمرون

وفى المقطع الرابع والعشرين من القصيدة يحدد ويتمان هويته ومنطلقاته الواقعية بوضوح شديد :

والت ويتمان
مواطن العالم
ابن مانهاتن ...
فائر ، جسدى ، شهوانى
يأكل ، ويشرب ، وينجب
إنه ليس عاطفيًّا
ليس متعاليا فوق الرجال والنساء
وليس بعيدًا عنهم .

ثم يقول :

إننى أقول كلمة السر البدائية
وأعطى شارة الديمقراطية
ووالله ... ما قبلت شيئًا لن يناله الآخرون ... سواسية .

هذا هو والت ويتمان بكل وضوح ، فى انطلاقه الواقعى نحو البحر والطبيعة .

إن أردت أن تفهمنى ، فاذهب إلى الأعالى
أو إلى شاطئ البحر
حيث أقرب بعوضة شرح
وحيث الفطرة ، ونأمة الموج ... مفتاح
وحيث القدوم ، والمجداف ، والمنشار اليدوى ، عون كلماتى .

لا أحب الغرف المسدلة الستائر ، ولا المدارس
أحب المساكن الخشنة والأطفال .
الميكانيكى الشاب ، هو الأقرب إلىّ ... إنه يعرفنى حقا
وقاطع الأخشاب الذى يتناول فأسه ... ويعمله ... سيصحبنى
طوال النهار
وصبى المزرعة الذى يحرث فى الحقول يرتاح لسماع صوتى
فى السفن المبحرة ، تبحر كلماتى ...
إننى أمضى مع الصيادين والبحارة ...
وأحبهم .

وفى مقطعين متتاليين من قصيدته الطويلة « أغنية نفسى » يصور ويتمان المعارك البحرية مع السفن الإنجليزية فى حرب الاستقلال الأمريكية . فى المقطع الأول يسجل بالشعر رؤيته لمعركة بحرية بين الأمريكيين والإنجليز ، وهى معركة قاسية متكافئة انتهت بصعود المياه إلى السفينتين وانتهت بلجوء البحارة الأمريكيين إلى سفينة أمريكية ثالثة . ثم يعبر ويتمان فى المقطع التالى عن النهاية المأساوية للمعركة البحرية التى أسفرت عن أشلاء اللحم البشرى وأنين الجرحى والدماء .

تمددًا ، وساكنًا ، يرقد منتصف الليل
شبحان عظيمان لسفينتين ، بلا حراك ، فوق صدر الماء
سفينتنا المنخوبة بالقذائف تغرق شيئًا فشيئًا
نحن نستعد للانتقال إلى السفينة التى استولينا عليها
والقبطان يصور أوامره رزينًا
أبيض الوجه مثل ورقة
وقريبًا ... جثة صبى القمرة
والوجه الميت لبحار عجوز ، ذى شعر أبيض ، وسالفين متقنى التمشيط
واللهب يندلع من كل شئ ... مرتفعًا ، وهابطًا
والصوت المبحوح لضابطين أو ثلاثة ما يزالون قادرين على العمل
أكداس لا شكل لها من الأجساد

وأجساد منفردة
ومزق من اللحم على الصوارى والأعمدة
حبال مقطعة ، وحواجز متدلية
وضربات خفيفة من نعومة الأمواج
مدافع سود هامدة
ونثير من أكياس البارود ، ورائحة نفاذة
نجوم واسعة قليلة ... تشع حزينة صامتة
أنفاس رقيقة من نسيم البحر...
روائح السعد ، والحقول القريبة
وسائل الموت يتعهدها الناجون
هسيس مبضع الجراح ، وأسنان منشاره الماضية فى اللحم
اندقاق الدم المنهمر ، والصرخة الوحشية القصيرة
ثم الأنين الطويل الكابى ...
ها هو ذا ... ما لا يستعاد .

فالذى يستعاد من المعارك البحرية هو ما صوره ويتمان فى المقطع الأول من قصيدته معارك البطولة والنضال ، ولكن مالا يستعاد هو الضحايا والأشلاء والدماء والأنين . وقد ضمنها ويتمان المقطع الثانى عبر صوره الشعرية الصادقة والجميلة ، صور البحر الفاتنة الرقيقة . فالأمواج صارت ناعمة بجانب المدافع السوداء الهامدة ، ونسيم البحر راح يطلق أنفاسًا رقيقة تحمل روائح السعادة فى مواجهة رسائل الموت والقتل والذبح والدم . لهذا يلجأ ويتمان إلى البحر ، للخلاص من الجراح الأرضية . هذه الرؤية المتدفقة للبحر عبر عنها ويتمان فى كثير من قصائد ديوانه العظيم « أوراق العشب » ، كما فى قصيدته « معجزات » :

أرى البحر معجزة مستمرة
الأسماك - الصخور - حركة الأمواج
والسفن ذات الرجال
ترى ... كم من المعجزات هناك !

ومثل قصيدته « السفينة تقلع » .

انظر !
ها هو ذا البحر الذى لا يعرف حدودًا
على متنه تقطع سفينة
ناشرة كل أشرعتها
حاملة حتى أشرعتها القمرية
والراية تخفق عالية .
وعندما تسرع ، تسرع وفورًا
تندفع تحتها الأمواج المتسابقة
إنها تطوق السفينة
بالاندفاعات المشرقة المتقوسة
والزبد .

فالبحر معجزة مستمرة تحتوى الأمواج والسفن والصخور والأسماك . إنه انطلاق بلا حدود ، إلى عالم ويتمان الجديد ، عالم الخلاص والحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية .